

سرقات صغيرة

قصص

A.SiWi.95 سيوي

سرقات صغيرة

لوحة الغلاف إهداء للمؤلف
من الفنان عادل السيوي

Author: Taleb Alrefai
(Title: Miner Thift)
Short Stories Collection
First Edition: 2010

الطبعة الأولى ٢٠١١

رقم الإيداع ١٦٦٩٦/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2914-7

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

طالب الرفاعي

سرقات صغيرة

دار الشروق

فرح وقتيبة وصبا

لكم محبتي.. وبكم امتدادي الأحب

المحتويات

ابتسامات

موعد الاجتماع في السادسة. وصلت إلى المحل قبل جمعة. سأراجع قائمة الأسماء الجديدة المقترحة ريثما يصل.

جمعة صديقي منذ أيام الدراسة، أحبُّ فيه طيبة قلبه، وابتسامته الهادئة التي لا تفارق محياه. قبل ثلاثة أشهر، وبينما كنا نلعب الورق مع الرَّبْع في جلسة الديوانية المسائية اليومية، ووسط صراخهم، همس بي:

ـ عندي مشروع جديد.

ـ مبروك مقدمًا.

قلت ممازحًا، فلمحتُ على وجهه نظرة توزعت بين الرجاء والجد. انسحبت من لعب الورق، وانتحيت به جانبًا، فقال:

ـ أنت موظف حكومي وتفهم في الأمر أكثر مني.

شعرتُ بجديته، بثّني:

ـ عزمت على فتح محل، وأودّ أن تكون شريكي.

ـ أنا موافق دون أي قيد أو شرط.

سبق قلبي لساني في الموافقة:

ـ توكلنا على الله.

ردد هو وقد نثر الرضا على وجهه ابتسامة طيبة، وقال:

ـ غدًا أبدأ المعاملة الرسمية في استخراج الرخص.

* * *

في تلك الليلة، لحظة بدأ جمعة بشرح فكرته، تحمست لها أكثر منه:

ـ سنفتتح محلًّا لشراء وبيع ابتسامات المسؤولين والمشاهير.

تكلم بهدوئه المعهود، ورحت أصغي:

ـ لا أحد يبتسم لوجه الله. الجميع يركض وراء ابتسامة المسؤول الغالية، كلٌّ يريدها لسبب يخصه.

أشرت إليه أستوقفه لثوان، فأنا بحكم عملي شهدتُ مواقف كثيرة، وعايشت أنواع الابتسامات، وخبرتُ جيدًا كيف يتحمل البعض التعب والانتظار والضيق لحضور مناسبة أو ندوة أو معرض، لا لشيء إلا ليرى المسؤول وجوههم، وقد يتكرم برمي جزء من ابتسامة عليهم. أفصح جمعة:

ـ ابتسامة المسؤول غالية، ونحن سنوصلها إلى الزبائن الراغبين فيها ونأخذ عمولتنا.

طافت ابتسامة أعرفها على وجهه وهو يقول:

ـ كثيرون يكرهون المسؤولين، وربما تمنوا زوالهم، لكنهم يحسبون ألف حساب للفوز بابتسامة منهم.

ـ اتفقنا.

بحثنا في الأيام التالية بهمةٍ عن محل مناسب. ولقد اشترطت عليه، أن يكون في مجمع تجاري راق، وأن تكون الديكورات فخمة، و«الكاتالوج» مدروسًا، وأخيرًا ترتيب الدعاية؛ ليكون حفل الافتتاح حدثًا اجتماعيًّا مدويًا.

بعد أن عثرنا على المحل ودفعنا الخلو المطلوب، اتفقنا مع مكتب هندسي لعمل الديكورات المبتكرة. وبغية استغلال الوقت، وبالتنسيق مع شركة أمريكية عالمية عبر موقعها الإلكتروني، بدأنا بتجهيز الكتالوج بأكثر من لغة، ورحنا نضع الشروح والمواصفات والتصنيفات والأسعار والصور الخاصة ببضاعتنا، وبما يتناسب مع مكانة ونفوذ صاحب الابتسامة، وحاجة وطلب كل زبون.

* * *

لا أظن جمعة يتأخر. البارحة أكد لي على الموعد، وأضاف:

ـ سأحضر أسماء جديدة.

مساء الافتتاح، حرصت أن أكون متواجدًا قبل الموعد بثلاث ساعات، وكان جمعة قد صبغ شعر رأسه وشاربيه، وارتدى «البِشْت» للظهور بالمظهر الرسمي، بينما لبستْ فتيات المحل الزي الرسمي الخاص بهن.

يومها كنتُ مشغولًا بالتأكد من كل صغيرة وكبيرة: وصول بوكيهات الورد، توزيع الإضاءة بالشكل الأمثل، مكان المباخر، ترتيب البوفيه مع مسؤول الفندق المختص، وأخيرًا خروجي أنا وجمعة وإحدى الفتيات الجميلات للانتظار عند بوابة المجمع الخارجية، لنكون في استقبال موكب سعادة المسؤول الذي تفضل بتشريف دعوة الافتتاح، وقبول عرض المحل لتسويق ابتسامته الآسرة.

* * *

أفكّر في تطوير خطة عمل المحل، واستضافة أسماء مشهورة لفنانين عرب وعالميين.

خلال حفل الافتتاح، وبالإضافة لكاميرات المحل التي تعمل أوتوماتيكيًّا في مختلف درجات الإضاءة، جهّزت فتيات المحل بكاميرات مفرطة الحساسية، ونشرتهن في كل زاوية، وذلك لمراقبة واصطياد كل من يكشف عن أسنانه، طمعًا في اقتناص ابتسامة من سعادة المسؤول، بغية تحميله تكلفتها، حسب التسعيرة، فلا شيء لوجه الله.

بدأ الحفل بوصول نساء ورجال الصحافة وصغار الموظفين ثم بعض المسؤولين الحكوميين فرجالات الدولة والوكلاء والسفراء، ومدير مكتب سعادة المسؤول.

أذكر أن الجو كان مليئا بالابتسامات المجانية على أنواعها، مع تداخل أنغام الموسيقى ببعض الهمس، واختلاط روائح المدعوات بعبير الورد ودخان البخور.

غصّت القاعة بالحضور المخملي والرسمي، وما إن وصل موكب سعادة المسؤول يحيط به طاقم مكتبه، وتسبقه ابتسامته الآسرة المتفق عليها، حتى دبت في المكان روح خفية. أسرع البعض متدافعًا للسلام عليه، وقد كشف عن أسنان لامعة. ولبس البعض وجوهًا جديدة باسمة، وأطلَّ بعض آخر برقابهم ملوّحين بابتساماتهم وتحياتهم:

ـ مسّاك الله بالخير يا طويل العمر.

انتقل آخرون إلى زوايا جديدة، في مرمى ابتسامة سعادة المسؤول.

بدا الجميع منشغلًا في اصطياد ابتسامة كان الإعلان عنها كفيلًا بجذب عشرات المشترين. ولحظتها بدأت كاميرات المحل بالتقاط صور وجوه الباحثين عن ابتسامة سعادة المسؤول، ولم تتوقف.

أسمع خطوات جمعة، سأنهض لاستقباله.

الكويت ٢/ ١٢/ ٢٠٠٨

برواز

هادئة بدت «جاليري» «بوشِهْرِي» لحظة دخلنا أنا وسوسن لزيارة المعرض. موسيقى خافتة تنبعث من مكان ما، وصوت امرأة تحادث رجلًا في المكتب المجاور.

وقفت أمام لوحة كما لو أنها تومئ إليَّ: امرأة ورجل ولحظة خيبة. شعرت أنني أعرف هذه اللحظة. حدّثت نفسي: «خيبة ما بعد لحظة جنس خاسرة. شيء من ندمٍ، أو قرفٍ، أو حجرٍ ينحشر في البلعوم».

تعلقت عيناي بامرأة ورجل اللوحة، بعريهما الخَجِل وغيبتهما، وقد أعطى كلٌّ منهما ظهره للآخر. ذائبة بنشوتها تراءت لي المرأة، بينما ظلل حزن غريب وجه الرجل بلحيته السوداء، وانحناء رقبته.

لاحظت سوسن تسمري مأخوذًا باللوحة. فسألتني:

ـ لماذا توقفت؟

أشرت بإصبعي:

ـ كأني أعرف المرأة والرجل.

ابتسمت لجملتي. تأملت معي لبرهة، فأوضحت لها وترددٌ ما يغشى حسّي:

ـ أعرف غربتهما.

ندت منها نظرة إلى اللوحة، في محاولة لاكتشاف ما أعنيه.

خاطبتني قائلة:

ـ لا شيء، امرأة ورجل ولحظة عُرْي.

بقيت مربوطًا إلى اللوحة بتأملي الصامت. أحسست وكأن شيئًا من خيبة اللوحة قد مسَّ قلبي. انتشلني صوت سوسن:

ـ أعجبتك؟

ـ أعرفها هذه اللحظة.

كررت عليها، وانتزعتُ نفسي من أسر اللوحة، تركتهما: المرأة والرجل ولحظة الحب الخاسرة. امتدت يد زوجتي تمسك بي، سرنا بخطواتنا المتلاصقة، ونتف كلماتنا.

* * *

بعد أسبوعين، رنَّ هاتف مكتبي، جاءني صوت نسائي:

ـ أستاذ فهد؟

ـ نعم.

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور.

قلتُ بنبرة ترقب:

ـ إلى أي عنوان تريد أن نرسل اللوحة؟

ـ أي لوحة؟

ـ لوحة الفنان صفوان داحول.

استغربت سؤال المرأة، تأكدت منها:

ـ اللوحة باسمي أنا؟

ـ نعم.

رددت عليَّ اسمي ورقم هاتفي. فأعطيتها عنوان مكتبي. وحال أنهيت المكالمة، أسرعا إليَّ: امرأة ورجل اللوحة بوضعهما المنكسر وغربتهما، وشرودهما كلٌّ في وحدته، هربًا من الآخر. ولا أدري لماذا هاض شيءٌ من حزنٍ دفين في صدري.

* * *

فرِحًا حملتُ اللوحة معي إلى البيت. لحظة فتحت سوسن الباب، قبّلتها على طريقتي:

ـ ماذا هناك؟

سألت بابتسامة مراوغة. رأيت الجواب يلوح مخبّأً في عينيها. رفعتُ يدي باللوحة:

ـ شكرًا جزيلًا، هدية ومفاجأة حلوتان.

ـ شكرًا على ماذا؟

لاعبتني، فأوضحت:

ـ سنذهب مساءً لاختيار البرواز.

اتسعت ابتسامتها بعينيها اللتين أحب. طوّقتها وسرنا واللوحة إلى غرفة نومنا.

* * *

ـ هذا البرواز أنسب؟

اقترحتُ عليها، فاستدارت تخاطب صاحب المحل:

ـ الإضاءة مزعجة في محلكم، من الصعب التعرف على لون البرواز الحقيقي.

ـ يجوز.

علّق صاحب المحل، وابتسامة معتذرة ترسم فمه:

ـ دعي الإضاءة.

همستها، ومددت يدي ببرواز جديد:

ـ ما رأيكِ؟

تناولت قطعة البرواز، وضعتها إلى جانب اللوحة، راحت تتملى الألوان. بقيت أنتظر إجابتها، فالتفتت ثانية لمخاطبة صاحب المحل:

ـ لماذا لا تستخدم إضاءة تماثل ضوء النهار؟

ـ ربما نفعل في المستقبل.

أجاب صاحب المحل، وبعض ضيق بدأ يعلق بصوته:

ـ جاليريات اللوحات الفنية لها إضاءة خاصة.

أكملت زوجتي محتجة، فحدّثتُ نفسي: أعرفها، ستترك البرواز وتُمسك بالإضاءة.

غاب صاحب المحل لبرهة، أحضر أكثر من برواز. صفَّ البراويز الجديدة بمحاذاة اللوحة. اختار أحدها، وخاطبني مستوضحًا:

ـ أظن أنه مناسب؟

جرّبت وضع البرواز لصق اللوحة. نظرت لسوسن. فقرأت انزعاج نظرتها. شعرت بضيقها، وما لبث أن احتج صوتها بشكواها:

ـ صعب الاختيار، الإضاءة مضللة.

لاحظت تعكر وجه صاحب المحل. دفع يقول بشيء من غيظ:

ـ المهم البرواز يا مدام، لن تأخذوا الإضاءة معكم إلى البيت.

ـ صحيح.

أكّدتُ له معتذرًا، وملتُ برأسي على زوجتي أعنّفها:

ـ أرجوكِ انسي الإضاءة.

علا الانزعاج وجهها. تناولت قطعة البرواز الجديد بأصابع متيبسة، وضعتها لصق اللوحة:

ـ لا بأس.

قالت من خلف ضيقها، وأضافت بعد برهة:

ـ لو كانت الإضاءة أفضل لأمكن.

ـ لا فائدة.

تمتمت وحرقتي بنفاد صبري، بلعت ضيقي. مددت يدي، رفعت اللوحة، ونظرت نحو صاحب المحل، قائلًا:

ـ شكرًا جزيلًا.

أدرت ظهري وخطوت خارجًا، فلحقت بي متعجلة:

ـ ماذا حصل؟ ألن تختار بروازًا؟

ـ لا.

قلت بعصبية، وأكملت طريقي حاملًا اللوحة، وقد تسرب إلى قلبي شيء من خيبة لحظتها.

الكويت ١٥/ ٩/ ١٩٩٩

فووووووق

سماء المغيب الباهتة تبدو بعيدة. سارة منشغلة مع أمها بنفخ البالونات، وأنا أتابع التليفزيون.

لا أدري كيف تعلقت صغيرتي بهذه اللعبة؟ يلوّن الحبور وجهها لحظة تأتي إليَّ راكضة، يسبقها صوتها الودود:

ـ بابا.. بابا.

تقف أمامي بلهفتها وأنفاسها المتلاحقة، ويداها الصغيرتان خلف ظهرها:

ـ أغمض عينيك.

تطلب مني، ولمعة فرح تتقافز في عينيها. أخبئ ضحكتي، أصطنع تغطية وجهي بأصابعي:

ـ تيري لي لَمْ.

تردد اللحن بنبرتها المحببة. أفتح عينيّ، فتمدّ كفيها الصغيرتين بكيس النايلون المليء بالبالونات الملونة. تخبرني:

ـ ماما اشترتها.

تتوقف لثوان وكأنها تقرأ وقع خبرها عليَّ، وتكمل مسرعة:

ـ سأنفخها مع ماما.

تتقابل نظراتنا، أسألها وأنا عارف بإجابتها:

ـ وبعدين؟

وكما لو أنها تبوح بسرٍّ عزيز، تقول وابتسامة وجهها:

ـ وَنَاسَة.. نطيّرها في السماء.. فوووووق.

* * *

صورة عبدالله تملأ الشاشة. صار يتكلم كخبير في علم الإدارة، وصار وجهًا بارزًا من وجوه الإدارة في البلد.

«العُبُد» أحد رواد «ديوانيتنا»، لم يكمل دراسته المتوسطة، لكنه يجيد لعب الورق، وكذلك لعبة «الدامة» الشعبية.

ـ بابا.. بابا.

صوت سارة يصلني في جلستي أمام التليفزيون، تأتي راكضة برجائها:

ـ تعال العب معنا.

تقف أمامي بشعرها المتطاير واحمرار وجنتيها، تنتظر إجابتي، فأشير لها:

ـ العبي أنت وماما.

تستمر في وقفتها ونظرتها الملحاحة، فيرق قلبي لها:

ـ بعد قليل أجيء ألعب معكما.

ـ وعد؟

تسألني ونظراتها تشمل وجهي، فأكرر عليها مقلدًا نبرتها:

ـ وعد.

العُبُد يجلس في الصف الأول.. بعد تخرجي في كلية الإدارة، وحين قابلني في الديوانية، سألني بلهجة لم أفهمها:

ـ هل ستعمل في وزارة التخطيط؟

يزعجني فضول وتطفل العُبُد.

ـ طارت.. طارت.

تصرخ سارة منتشية، وهي تمارس هوايتها الأحب تشير بإصبعها إلى السماء:

ـ بابا شوف.

* * *

بعد توظفي في الوزارة، صرت ومجموعة من الأصدقاء الشباب نلتقي في نادي الوزارة، ولا أدري كيف عرف العُبُد بلقائنا. في أول مرة حضر جلستنا، سألني:

ـ هل يضايقك وجودي؟

نظرت إليه، وددت لو أقول نعم، لكنني دفعت:

ـ نحن نلتقي للمناقشة والتطوير.

ـ سأحرص على حضور جلساتكم.

قاطعني قبل أن أكمل جملتي، وأضاف:

ـ مجالسة الشباب المتحمس والباحث عن التطوير مكسب.

ـ خلص.

سارة تتقافز حول أمها المنشغلة بنفخ البالونات:

ـ كافي.

تهمّ بانتزاع البالونة من يد أمها. ولحظة تستلمها يغزو البِشْرُ وجهها، يشعّ من عينيها. تسرع برفع يديها إلى الأعلى، وتلتفت منادية عليَّ:

ـ بابا.. بابا.

تطلق البالونة للريح، مرددة في سعادة:

ـ طارت.. طارت.

ترتفع البالونة إلى السماء، تلعب بها الريح. تتمرجح، وعينا الصغيرة الفرِحتان تلحقان بها.

العُبُد حضر معنا لمدة شهرين في نادي الوزارة. كان يجلس متحفزًا لا يملّ الأسئلة، وفي المرات الأخيرة صار كباقي المجموعة يأتي حاملًا كمبيوتره الشخصي، قال مبررًا:

ـ أتعلم البرامج ومواقع الإنترنت.

وأضاف بنبرة واثقة:

ـ الإنترنت شيء عجيب.

حين انقطع عن المجيء، قابلته في الديوانية، فبادرني ونشوة حسّه:

ـ افتتحت مكتبًا استشاريًّا خاصًّا بالإدارة ودورات الإنترنت.

ودون أن ينظر في وجهي أكمل:

ـ أنا شخصيا أحاضر فيه.

ما فهمت جملته، فأكمل والزهو في حسّه:

ـ أصبح لي الكثير من الطلاب والمنتسبين.

ـ ماذا تقدم لهم؟

سألته هازئًا:

ـ آخر أساليب علم الإدارة وخفايا الإنترنت.

أجاب بنبرة جادة:

ـ الشهادة ليست كل شيء، اكتشفت أنني باحث إداري ماهر.

إحدى البالونات تطير مرتفعة فوق رأسي.

ـ يا ماما انتظري.

صوت زوجتي تزجر الصغيرة المتلهفة على تطيير المزيد من البالونات.

بعد فترة صرت أشاهد صور العُبُد في الجرائد والمجلات معلنًا عن دورات معهده التدريبية، وما لبث أن صار يظهر في الملتقيات الإدارية والمؤتمرات والمهرجانات. وكم رددت سؤالي باستغرابي وحيرتي:

ـ ما دخل العُبُد بالإدارة؟!

في الأسبوع الماضي قابلته في موقف الديوانية. مشينا معًا. بدا يتدحرج في مشيته كطائر البطريق. لاطفته قائلًا:

ـ أين هذه الغيبة؟

ظهر الانشراح عليه، قال بنبرة واثقة:

ـ الدعوات والالتزامات كثيرة.

لحظة دنونا من مدخل الديوانية، انتبهت أنه مدَّ خطوته، حرص على أن يتقدمني، ليأخذ مكانه في صدر الديوانية:

ـ ارقصي.. ارقصي.

سارة تطيّر بالونة جديدة، وتلاحق تقلّبها في الفضاء.

* * *

صباح أمس دعانا وكيل الوزارة لاجتماعنا الشهري، وكم كانت دهشتي لحظة وجدت العُبُد جالسًا عن يمين الوكيل، وقد اختفت رقبته! بدا لي أن الاثنين منسجمان بحديث حميم. شيء ما ضايقني. صعد بي السؤال:

ـ ما علاقة العُبُد باجتماعنا؟

فكرت بالانسحاب. تكلم الوكيل في أكثر من موضوع، وقبل أن ينتهي الاجتماع قال:

ـ سأقابل سعادة الوزير خلال الأيام القادمة لأنقل له اقتراحاتكم، وسيكون الأستاذ عبدالله معي.

شعرت بمغص معدتي:

ـ بابا تعال طيّر البالونات معنا.

سارة تقف أمامي راجية. عيناي معلقتان على شاشة التليفزيون.

صورة العُبُد تملأ الشاشة جالسًا في الصف الأول. يد سارة الصغيرة تمتد إلى الشاشة ساحبة العُبُد من ياقة «دِشْدَاشَتِه»:

ـ سارة.

صرخت بها بقصد إيقافها، لكنها ما التفتت لصرختي، أكملت تسحبه. وحين صار في يدها، طوّحت به في الهواء:

ـ خفيف يا بابا.

حبس الاستغراب أنفاسي:

ـ سأطيّره.

سمعت صوتًا كمواء القطط يصدر عن العُبُد. جاءت الابتسامة إلى وجهي، وتحركَ نَفَسٌ مكتوم في صدري. وتسرع سارة تشوّح به قبل أن تتركه، فيرتفع في الهواء، وصوتها بفرحها يلحق به:

ـ فوووووق.

الكويت ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٦

سالم الصغير

ضوء الشمس في الخارج بدأ يفرش السماء بالنور.

اليوم عيد ميلاد أبو بدر.

ما زال غاطًّا في نومه. يصعب عليَّ مجاراته في سهره. يتناول عشاءه في الثامنة: كِسْرَة خبز، وقطعة جبن، وحبات زيتون ووريقات خس. يأكل بهدوء دون كلام، وما إن ينهي عشاءه، حتى يتفرغ لمشاهدة التليفزيون. يتنقل بين القنوات الفضائية. تستهويه الحياة البرية، وسباقات الرياضة، وقنوات الموسيقى. وفي التاسعة يسمع نشرة الأخبار، يكتفي بالموجز، ينهض بعدها إلى مكتبه في غرفة نومنا لبدء رحلة القراءة الليلية.

أكره ساعات قراءته الثقيلة، ساعة ساعتين ثلاثًا أربعًا. هي أزعج ساعات يومي، أحتار ماذا أفعل. أجلس بقربه أشاهد التليفزيون الأخرس. فيخاطبني:

ـ ارفعي الصوت قليلًا.

لا أحب أن أزعجه، وأخشى مضايقته. فيؤكد هو:

ـ سأبقى مركزًا مع القراءة.

في معظم الليالي، لا أدري كيف تغافلني رقبتي، تميل بحمل نعاسي، ولحظتها ينهض هو يهزني بلطف:

ـ أم بدر.. أم بدر.

أقوم إلى فراشي، متمنية لو يصاحبني، لكنه يعود لقراءته وصمته.

اليوم عيد ميلاده، هو يكره أن يذكّره أحد بذلك.

حين ألومه على طول سهره، يسكت لثوان، قبل أن تلتقي نظراتنا، فيبثّني وبعض أسى يلفّ كلماته:

ـ سأنام كثيرًا.

تخيفني جملته، ترش الحزن على قلبي. يملأ الدمع عينيَّ، أبعد البكاء خوف أن يكون فأل سوء، وأسكت لا أعرف كيف أردّ.

في كل سنة نختلف يوم عيد ميلاده. يكره هو المناسبة، لا يود أن يذكّره أحد بها، ويتضايق من أي احتفال.

تملأ الحسرة قلبي. تأخذني أفكاري، أتمنى لو نستيقظ باكرًا، نرتدي ثيابًا تليق بحفلة، ونخرج معًا لإفطار خاص. أشتاق للإمساك بذراعه التي أحب. نقصد مطعمًا يغصّ بالناس والضجة، نتناول فطورنا ونستعيد بعض ذكرياتنا. ونقضي ساعة نتمشى في إحدى الأسواق.

بدأ يتحرك في الفراش، لأنهض وأجهز الفطور له.

* * *

ـ أنا في السيارة، بعد دقائق سأكون عندكم.

أصرّت ابنتي منى على اصطحاب أولادها والمجيء لتناول الغداء عندنا.. مجيئها سيخلق مشكلة. يوم أمس قالت:

ـ سنحتفل بعيد ميلاد بابا على طريقتنا.

اعترضتها:

ـ أرجوكِ، هو لا يطيق كلمة احتفال.

طمأنني صوتها:

ـ أعرف أبي ولن أضايقه بشيء.

منى وأخوها بدر اعتادا أن يأتيا وعيالهما لزيارتنا في نهاية الأسبوع.

سيعتقد سالم أنني وراء دعوتها وعيالها اليوم للاحتفال بعيد ميلاده. حذرني في السنة الماضية:

ـ أرجوكِ أم بدر.

مرارًا قال لي:

ـ لا أفهم لماذا يحتفل الناس بانقضاء سنة من أعمارهم؟!

وردد:

ـ مسرات الحياة لا تحتاج لمواعيد بائسة.

هو هو الرجل القوي الذي هزّ قلبي أيام شبابنا. ما زالت نظرته الجادة تغطي وجهه، وما زال صوته وكلماته.

أذكر حين بدأ الشيب يتسرب إلى شعر رأسه، طلبت منه أن يصبغ، لكنه رفض قائلًا:

ـ لكل موسم ثمر.

كم أحب سالم! لا أتصور حياتي بدونه.

أسمع صوت جرس الباب. سيخرج الآن من مكتبه ليستطلع القادم.. أصوات منى وأولادها:

ـ مرحبا بابا.. مرحبا جدو.

ـ يا هلا.. يا هلا بالحلوين.

كأنه يرحب بهم فرحًا. سأسرع بالنزول لاستقبال منى وعيالها.

* * *

الآن بدأت ساعات القراءة الكريهة. كنت أتمنى لو أنه نسي القراءة الليلة. فرحت كثيرًا حين مرَّ حضور منى وعيالها على خير. استقبلهم مرحبًا، قبّلهم جميعًا، راح يلعب مع رنا الصغيرة. وحين قالت منى إنها أحبت أن تفاجئنا وتأتي لتناول الغداء معنا. ردَّ عليها:

ـ أهلًا بكم في أي وقت.

كدت أطير من فرحي لحظة جاءت عيناي بعينيْ منى. وتكرر الأمر حين رنّ جرس الباب مساءً، وسمعت أصوات بدر وعياله. صعدوا جميعهم لصالة الجلوس، بدر وزوجته وعياله. قفز سالم الصغير وأخته سهى يُسلّمان على جدهما:

ـ سالم الصغير أصرّ على الزيارة.

قالت زوجة بدر تبرر مجيئهم:

ـ كنا خارجين للعشاء لكنه جاء بنا.

ظل أبو بدر بهدوئه، لكنه ما لبث أن قال:

ـ ليس أعز من سالم على قلبي، هو غير عن الجميع.

اعترضت سهى:

ـ لماذا يا جدي، ألست أنا الأكبر!

أخذها إلى حضنه يقبلها قائلًا:

ـ أنت وسالم أحبابي، لكنه يحمل اسمي.

بدر وزوجته أحضرا عشاءً، لكن أبا بدر فضّل عشاءه المعتاد. وبانتهاء موجز الأخبار نهض منسحبًا. قبّل سهى وابتسم لسالم قائلًا:

ـ شكرًا لأنك جئت بهم.

مشى قاصدًا غرفة نومنا، لكن سالم الصغير انفلت يلحق به راكضًا، وقف أمامه قائلًا:

ـ كل سنة وأنتَ بخير.

خفق قلبي، لكن أبا بدر انحنى يقبّل الصغير:

ـ وأنت بألف خير.

قاده من يده، قبل أن يلتفت إلينا قائلًا:

ـ سأعطيه هدية، وحده تذكّر عيد ميلادي.

كادت الدمعة تطفر من عيني. أكمل يقول:

ـ لحظات الفرح أجمل ما في الحياة.

أكره قراءته الليلية. أحضرت فيلمًا رومانسيًّا. سأفتح التليفزيون، ولن أدع الصوت خفيضًا الليلة.

ـ لماذا الصوت عالٍ؟!

ـ اليوم عيد ميلادك، ولا أريد للقراءة أن تأخذك مني.

ابتسامة رضا تعبر وجهه، يخفق قلبي. ينهض هو، يدنو مني، يتناول يدي، يقول بحسٍّ محب:

ـ لا قراءة الليلة.

فبراير/ شباط ٢٠٠٥

جــــدار

مللت حياتي. صباحات متشابهة تجرّ خلفها أيامًا متكررة، وعمر يسير إلى حتفه.

لا أدري لماذا أشعر وكأني أنتظر خبرًا لا يأتي؟! كثيرون يمرّون بجانبي ولا أحد منهم ينظر إليَّ. مللت سكوني بوحدتي وصمتي الحجري.

وحده الغبار يكنس وجهي، ووحدها الريح تمسد ضلوعي. لا شجرة ولا عصفورة تحطّ بقربي.

باكرًا، جاء ثلاثة عمال. توقفوا بالقرب مني، أسند أحدهم ظهره إليَّ، استخرج علبة دخانه، أشعل سيجارته، ورمى بعود الثقاب عليَّ، وسافر مع ارتفاع خيوط الدخان. وكان الآخر قصيرًا بسحنة محروقة، وعينين مشتعلتين بنظرة قلقة، وجسم ممتلئ، ورأس مكشوف، بشعر أسود كثّ ينزّ عرقًا لامعًا. أما الأخير فكان طويلًا، بجسم هزيل ويدين طويلتين لامستا ركبتيه، ورأس مغطى بخرقة بيضاء، وكان ذابل النظرة والهمة، صامتًا، يظلل الكدر وجهه كما لو أنه في جنازة.

أطلَّ قرص الشمس كعادته، يراقبني من خلف سجني.

تعاون العاملان القصير والطويل على حفر حفرة. ظل العامل الثالث مستندًا بظهره إليَّ، وكان بوجه مهموم، ينفخ دخان سيجارته وأسفه، حدّث نفسه:

ـ غدرت بي مع رجل آخر وحرقت قلبي.

حبستُ أنفاسي، أصخت السمع لحكايته:

ـ دمرت حياتي.

ظل مستندًا بظهره وعَرَقه إليَّ، يحاكي نفسه:

ـ هجرت بيتي، وتركت أطفالي وأمي العجوز لضياعهم.

شعرت به يغلي بحرقته، يسكن الدم نظرة عينية. دمدم يهمس روحه:

ـ ضحيت بكل شيء لأجلها. غادرت وطني، جئت غصبًا إلى الغربة والألم. تحمّلت المذلة والتعب. ما قصّرت في شيء معها. حرمت نفسي كي أرسل لها أقصى ما أستطيع من مال. لكنني الآن مقيّد، لا أقدر على ترك عملي والسفر إليها.

تحرك العامل رمى بعقب سيجارته بالقرب مني، ونفخ:

ـ ورطة.. لا أدري ماذا أفعل؟!

صفق بيديه:

ـ يا خسارة.

تمنى لو تطالها يده.

بدأ قرص الشمس رحلة ارتفاعه اليومية إلى مكانه وسط خيمة السماء.

انهمك العاملان بحفر حفرة. بقيت في حبسي أراقبهما، وأصيخ السمع لهمس العامل بمرٍّ شكواه عن زوجته، لكن شيئًا من لوعته وحزنه ما لبث أن انتقل إليّ. وددت لو أبتعد بنفسي قليلًا عن الجدار المجاور.

بعد فترة توقفت سيارة نقل «وَانِيتْ» بيضاء، أخرج سائقها رأسه، نادى على العامل الواقف، فرمى بسيجارته على وجهي، وجرى نحوه، مشيرًا لزميليه:

ـ تعاليا.

تعاون العمال الثلاثة، أنزلوا شجرة نخيل من الوانيت، وكانت برأس كبير مدوّر، مشدود بخرقة لطّخها الطين الأحمر. خاطب سائق الوانيت العامل الثالث بصوتٍ عالٍ موصيًا:

ـ لو سأل صاحب البيت، قل له نحن من شركة التشجير.

أومأ العامل موافقًا، فأدار صاحب الوانيت محرك السيارة مبتعدًا، بينما بقي قرص الشمس لامعًا معلقًا فوق الرؤوس.

العمال الثلاثة أزاحوا خرقة الطين، كشفوا رأس النخلة. كانت بشعرٍ أشقر كث. رشَّ العامل الطويل الماء على جوانب الحفرة. أيقظ عطشها، وهاضت رائحة التراب الحنون، فمسّني بخرها

المدوخ. بلل العامل الطويل رأس النخلة بالماء، وكذا صبَّ الماء يغسل وجهه.

تعاون العمال، أنزلوا رأس النخلة الكبير إلى الحفرة، فتمايلت واقفة. أسند العامل الطويل والزوج المنكوب النخلة كلٌّ من جهة وأسرع العامل القصير بملء جوانب الحفرة بالتراب، بينما التصق قميصه على جسده بعرقه المتصبب. ثبّت العامل الطويل عارضتين من الخشب لتسندا النخلة في وقفتها الأولى. انتصبت النخلة في حفرتها. ردم العمال التراب على جوانب الحفرة. رشَّ بعدها العامل الطويل الماء على التراب وعلى الجذع. فباشر العامل القصير دكّ التربة مستعينًا بمدكة يدوية، وحين انتهى، غسل العمال وجوههم وسواعدهم، شربوا الماء من برّاد صغير أحمر اللون، قبل أن يبتعدوا، وسط هذيان العامل المنكوب بشكواه من غدر زوجته.

قرص الشمس كان باهرًا في الأعلى.

راقبت النخلة، جارتي الجديدة. أردتُ أن أبادرها الترحيب بمنزلها. بدت معرضة، رافعة رأسها، مكتفية بنفسها. فما إن أخذت مكانها حتى اهتزت بسعفها، وكأنها تعيّرني بحبسي ووقفتي الجامدة.

مرت الليلة الأولى، وعيني ساهرة لم تغمض جفنًا، ترقب جارتي النخلة.

جاء الصباح الثاني، وجلب فرح وزغزغة العصافير بالنخلة. وجلب ظل قرص الشمس المائل.

طَرِبتُ لغناء جوقة العصافير. لكن جارتي النخلة استمرت بإعراضها عني.

هلَّ المساء الثاني.

والصباح الثالث.

انقضى أسبوع النخلة الأول في مكانها بالقرب مني.

انقضى الشهر الأول، والثاني.

بدأتُ أعتاد تدلل النخلة، وانشغالها بسعفها وعصافيرها ونسمات الهواء التي تداعب سعفها، وماء السقي الذي يُطفئ عطشها. لكن ما لم أستطع اعتياده، هو ترفعها وإعراضها عني.

مرت سنة كاملة. سنة طويلة بأيامها ولياليها وحرها وبردها ومطرها الشحيح.

ظل قرص الشمس في الأعلى بظهوره واختفائه.

مرت سنتان.

ومرت سنة ثالثة.

ارتفعت النخلة عن الأرض، زاد سعفها، وحمل عثوق الرطب فيها. مالت بجذعها تتكئ عليَّ، وانغرس بعض شوكها خادشًا وجهي.

احتملت وجعي، ما ضقت بحملها، ولا بتدللها، أحببت اختلاس ملامستها الرطبة بسعفها الأخضر ورائحة طلعها، وزقزقة عصافيرها الصباحية.

مرّت أيام ككل الأيام الثقيلة، وشهور عمياء دون ذكريات. تسللت سنوات عابرة كما في كل الأزمان. اعتادت النخلة ميلها، تُلقي بحملها وتعبها عليَّ. تخدش وتدمي وجهي بسعفها وشوكها المدبب، دون أن تنتبه، ولو مرة، إلى ألمي وحسرتي.

في يوم صيف حار، احتجب قرص الشمس، هبّت ريح قوية، فعفر الغبار الأصفر وجه السماء، ولسبب ما، شعرت بأنني ما عدت أحتمل ما أنا فيه. همست نفسي:

ـ ما أمرّها من حياة؟!

آذى تجاهل النخلة وغرورها قلبي. كرهت وحدتي وصمتي وحبسي بوجعي. أردتُ أن أضع حدًّا لحياتي. وفي التو انتفضت، فاهتزت الأرض من تحتي، وفزعت النخلة، ارتمت على وجهها، بعد أن ثارت عاصفة عالية من التراب، إثر سقوطي عليها.

الكويت ٢٨/ ٥/ ١٩٩٩

غرفة خانقة

المطار لا يبعد كثيرًا عن الفندق. قد يأتي السائق في أي لحظة. ما عدت أطيق البقاء في الغرفة، أودّ المغادرة بأسرع وقت.

قبل ما يزيد على السنة، في الاجتماع الثالث أو الرابع لمجلس إدارة البنك، خُيل لي أنني اصطدتها متلبسة تختلس النظر إليَّ. بقيت مدة أحاول التأكد من هاجسي. انتبهت لجمالها: طولها الفارع، وسمارها المحبب، وتسريحة شعرها المميزة، وعينيها، ربما سر جمالها في عينيها.

قلت أُمنّي نفسي: في كل مرة أجيء إلى اجتماع البنك، أنزل في جناح خاص، أتسلى معها. أنا الرئيس وهي السكرتيرة الجميلة.

صرت أصطنع أسبابًا واهية للمجيء بحجة متابعة أعمال البنك، وفي كل مرة كنتُ أجدها بأناقتها وسكوتها، وشيء أشبه بهالة حزن يشمل وجهها، وبحر عينيها. ولأنني استأخرت مبادرتها، تجرأت مرة وفاتحتها:

ـ أستطيع أن أسألك سؤالًا؟

ـ تفضل أستاذ.

ردّت وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظة:

ـ ماذا أعني لكِ؟

خمش سؤالي وجهها، اتسعت عيناها. ردّت قائلة:

ـ أنتَ السيد رئيس مجلس إدارة البنك.

وددت سماع إجابة أخرى، عدت أسألها:

ـ وماذا أيضا؟

ـ رئيسي المباشر الذي أعمل معه وأحترمه.

أنهي حوارنا أومأت برأسي:

ـ شكرًا.

انسحبت بصمت، ولحظة أغلقت باب المكتب خلفها، تمنيت لو أنادي عليها، أكشف لها عن هاجسي دون أي خوف أو خجل.

الطائرة ستقلع في الثامنة، أتمنى لو كان الموعد أبكر. أشعر وكأن جدران الغرفة تطبق عليَّ شامتة.

أنا رئيس مجلس إدارة البنك، وهي سكرتيرة، ما الذي يجعلني أنكسر في حضرتها؟! ما الذي يذل رجلًا في تقربه لامرأة؟! لتذهب هي وجسمها الشهي وعيناها الواسعتان إلى الجحيم.

أذكر أنني في إحدى المرات، كنت أراجع محضر اجتماع مجلس الإدارة، وكانت تقف منتظرة، فرفعت رأسي إليها:

ـ أودّ دعوتك لمكان خاص.

فاجأتها دعوتي. عبرت عينيها نظرة لم أفهمها. لحظتها شعرت أن وصولي إليها أصعب بكثير مما تصورت. وأن ثمن تلك اللحظة سيكون باهظًا. قلت لها:

ـ أودّ لو نقترب أكثر.

خطف وجهها ما يشبه ضيقًا، قالت:

ـ نحن زملاء عمل يا أستاذ.

كنتُ متأكدًا من أنها تفهم قصدي. أوضحت والحرج في حسّي:

ـ أطمح في صداقة مختلفة تجمعنا.

ولأنها راحت تنظر إليَّ، وكأنها تزن كلماتي، قلت:

ـ صداقة تتخلصين معها من كلمة أستاذ.

أحسستُ أنني أعود طفلًا صغيرًا يتعثر الحكي على لسانه. خفت أن أكاشفها بأنني أحلم بقضاء ليلة معها، وأنني أشتهيها كأشد ما يشتهي رجل امرأة. كنت واثقًا من أنها تعرف تمامًا ما يدور في رأسي:

ـ أتمنى لو نلتقي خارج المكتب.

التقت عيناي عينيها، قرأت انزعاجها. بعثت قائلة:

ـ إذا استوجب العمل فأنا حاضرة.

دعوتها مرة واحدة على الغداء، ومرتين سهرنا معًا.

ظلت تربكني بعفويتها. كنت أزداد لهفةً للوصول إليها، وأتحرق شوقًا لاحتضانها، وشم عطرها، وتذوق طعم شفتيها. وكنت في كل كلامي أحوم حول الفكرة، لا أجرؤ على التصريح بها.

متى يصل السائق؟ أشعر بالاختناق.

ما حصل ليلة البارحة لم أكن أتوقعه. كنا عائدين في سيارتي إلى الفندق، ولا أدري كيف طفرت جملتي:

ـ هل تمانعين لو أكملنا السهرة في غرفتي؟

ـ أبدًا.

قالت كلمتها بأسرع ما يكون، ودون أي تحفّظ ظاهر. خفق قلبي وكأني أدخل أول مغامرة في حياتي مع جسد امرأة. قلت لها بفرح طفولي ربما فضح لهفتي:

ـ سيكون هذا أسعد مساء في حياتي.

ظلت ساكتة. ارتبك كل ما فيَّ. لا أعرف كيف أوقفت السيارة، ولا كيف وصلنا إلى غرفتي. بادرتني تسأل:

ـ أين تحب أن نجلس؟

لم أكن أريد الجلوس، وكل ما فيَّ كان يتحرق لمعانقة جسدها، ووحده الصمت الماكر جعل يروح ويجيء بيننا. وهادئًا انبعث صوتها:

ـ تسمح لي؟

نهضت قاصدة ستارة النافذة، أزاحتها قائلة:

ـ أحب رؤية البحر.

ـ في الليل ليس سوى الظلمة.

علقت أنا على طلبها، فردت:

ـ أحب البحر في كل الأوقات.

عبرت سفينة بأضوائها البعيدة.

ارتبكتُ لا أدري من أين أبدأ. كنت متيقنًا من أنها تعرف مقصدي. ما طاوعتني الكلمات. لكن صوتها بادرني:

ـ نحن أصدقاء، هذا ما أقوله لزوجي كلما خرجنا معًا.

شعرت كأن أنفاسي بدأت تضيق فجأة، وأنني ما عدت أحتمل الاستمرار في جلستي، فنهضت واقفًا، بينما ظلت هي في جلستها، ونبرة صوتها الواثقة:

ـ ليس أجمل من الصداقة.

كانت تتكلم وفي صوتها شيء من عتبٍ وتحدٍّ. وللحظة تمنيت لو أطردها، لكنها نهضت واقفة، فعصف بي عطرها. قلت لها بصوت مهزوز:

ـ أتمنى لو نقترب أكثر.

ـ أكثر من أن أكون معك في غرفتك في الحادية عشرة مساءً؟!

كنا نقف متوجهين. لطمني سؤالها. قالت تكمل حديثها:

ـ لن نكون أقرب.

تركت جملتها معلقة لثوان، وبصوت هادئ أوضحت:

ـ أنا أحب زوجي وهو يثق بي.

ورمت مودعة:

ـ تصبح على خير.

سارت إلى الباب، وقبل أن تخرج التفتت مشيرة إلى الستارة، قالت:

ـ الآن يمكنك إغلاقها.

الكويت ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٦

جناح ملكي

أخبرتني أمي، وشيء من تعجل في صوتها:

ـ أبوك سيدخل المستشفى غدًا صباحًا.

فاجأتني جملتها فارتجف قلبي. شعرت وكأن صوتي ينحبس، وأن الكلمات تأبى مطاوعتي. لا أدري كيف أكملتُ تدريس صغيرتي. ناديت على الخادمة، قلت لها:

ـ اجلسي معها أمام التليفزيون. في تمام السابعة حمميها، وفي السابعة والنصف تكون في فراشها.

وأوصيت الصغيرة وقد أخذ روحي عطف مفاجئ عليها:

ـ حبيبتي، كوني هادئة ولا تتأخري في النوم.

أدرت محرك سيارتي فشعرت أنني خائفة، لا أستطيع التركيز على فكرة واحدة.. أنا دائمًا كنت الأقرب إلى أبي. طوال عمره ظل يعاملني بما يشعرني أنني ابنته الأحب. هو قليل الكلام، لكنني تعلمت، بيني وبين نفسي، كيف أقرأ نظراته المحِبة، وحنو لمسة يديه.

بدا الطريق مزدحمًا، تحولت الإشارة إلى اللون الأحمر، فوقفت خلفها منتظرة، ومن دون أن أدري شعرت بدموعي تبلل وجهي.

أحب بابا.. كم تغيّر في السنوات الأخيرة! أكل الوهن حضوره بيننا: مشيته وجلسته ونظرة عينيه وصوته وكلماته.

غرق في بحر صمته وعزلته طوال الوقت.

تحولت الإشارة إلى اللون الأخضر، ومعها فاض الدمع بعينيّ.

أقبلتُ على بيت أبي. لثوانٍ تصورت أنني أجيء إلى البيت فلا أجد... أبعدتُ الفكرة عن رأسي. أوقفت سيارتي، ومسرعة ترجلت.

* * *

لم أقابل أحدًا في صالة الاستقبال، فقصدت غرفته:

ـ مساء الخير بابا.

قبّلته أشمّ رائحة بدنه التي أحب، فردَّ بصوت واهن:

ـ مساء النور.

ممددًا على فراشه ووحدته:

ـ ماذا حصل؟ هل ستدخل المستشفى؟

ـ نعم.

بالكاد دفع كلمته. جلست إلى جانب سريره. نظرته المريضة معلقة في السقف. سرحت أتأمله في نحوله:

ـ ماذا تشكو يا أبي؟

ـ مغص في معدتي، لا أستطيع أن آكل أو أشرب.

عاد إلى بحر صمته مستغرقًا في النظر إلى السقف، وعدت أنا إلى تأمله. ظل البكاء يحوم من حولي، يضغط صدري. مرت بي سريعًا هيئته في اعتدال مشيته، ورعد كلماته، وضحكته المجلجلة. «لماذا يكبر الإنسان ويهرم؟».

صعد بي السؤال، بينما أنا أنظر إليه ممددًا في مواجهة بياض السقف. كريهًا حلَّ الصمتُ بيننا. افتقدت وجود أمي إلى جانبه. وأسأله قلت:

ـ أين ذهبت أمي؟

ـ لا أدري.

بقيت ساكتة، وظلت موجات البكاء تتكسر في صدري. وكما في السيارة، ما لبث الدمع أن طفح من عينيّ.

* * *

سمعتُ صوت أمي أثناء دخولها البيت، وكان أبي قد غطَّ في نومه. خرجت لملاقاتها:

ـ مساء الخير.

ـ أف.. تعبت.

رمت جملتها قبل أن ترمي بجسدها على أقرب مقعد، بينما أختي سعاد خلفها:

ـ منذ أكثر من ساعتين ونحن نبحث في محلات الشكولاتة.

قالت سعاد تخاطبني، وأضافت:

ـ حاولنا اختيار أفضل الأنواع لتقديمها في المستشفى لزوار بابا.

انتبهت إلى أنها تحمل كيسًا من الشكولاتة ماركة «باتشي»:

ـ اخترنا طقم التقديم للشاي والقهوة والفناجين.

قالت أمي، فسألتها:

ـ أي طبيب فحص بابا؟

ـ أخوك فضّل إدخاله إلى المستشفى الخاص، حجز له جناحًا ملكيًّا.

ـ ما رأيك في هذه؟!

مدت سعاد يدها نحوي بقطعة شكولاتة، وأردفت:

ـ سنرتب شراشف السرير والسجاد والورد والبخور، يجب أن يكون كل شيء لافتًا. ربما زاره الوزير صديق زوجي، ومؤكد أن صديقاتي وزميلاتي في العمل سيأتين للزيارة.

ظلت يدها ممدودة نحوي. كنت أنظر إليها:

ـ غدا صباحًا ستشتري أمي فساتين جديدة للخادمات، يجب أن يلبسن زيًا موحدًا.

تناولت منها قطعة الشكولاتة ووضعتها على الطاولة، والتفَتُّ أخاطب أمي:

ـ لماذا لم تأخذوا بابا إلى الدكتور الذي يُعالج عنده؟!

ـ دكتوره في مستشفى حكومي، ونحن نفضل نقله إلى مستشفى خاص.

وتؤكد كلماتها، أضافت:

ـ بمشقة كبيرة استطاع أخوك حجز الجناح الملكي.

علّقت سعاد، وقد غشي شيء من انفعال صوتها:

ـ لا يصحّ أن يرقد أبي في مستشفى حكومي، كيف أواجه صديقاتي؟! ربما زاره الوزير.

ـ الدكتور الذي يعالجه أدرى بحالته.

اعترضتُ موضحة، لكنها أسرعت تقاطعني:

ـ لا يهم.

متعجلًا دخل أخي، وما إن قعد حتى خاطب أمي:

ـ لقد اتفقت مع صديقي الصحافي على نشر خبر توعك صحة أبي، وغدًا صباحًا تكون صورته والخبر في جميع الجرائد.

حييته قائلة:

ـ مساء الخير.

ـ مساء النور.

ردَّ عليَّ، وأكمل يخبر أمي:

ـ رتبت أمر الرجل الذي سيتولى حمل الدلّة وصبّ القهوة، وأفهمته ضرورة أن يلبس الدِّشْدَاشَة والغُتْرَة والعِقال.

ـ بارك الله فيك.

أجابته أمي، وتدخلت سعاد:

ـ اشترينا فناجين القهوة المذهبة.

سألته:

ـ لماذا لم تأخذ أبي إلى طبيبه الخاص؟!

أزعجه سؤالي. حدجني بنظرة غاضبة:

ـ أنتِ لستِ في البلد، المستشفى أهم أم الطبيب؟!

كلّمني كما لو أنني سببته:

ـ منذ يومين وأنا أسعى لتأمين الجناح الملكي.

وارتفع حسّه يوبخني:

ـ لو سمحتِ لا تتدخلي، اتركي الأمر لي أنا وسعاد.

أنتَ وسعاد لا يعنيكما مرض أبي. دار ببالي أن أصرخ في وجهه. لكنه انتقل يسأل سعاد:

ـ ماذا عن الشكولاتة؟

قالت أمي:

ـ جاهزة، ربما يلزمنا بعض المكسرات.

شعرت بأني غريبة بينهم. تذكرت أن أبي ينام وحده، فنهضت قاصدة غرفته. كان غافيًا بضعفه وأنفاسه الهادئة، وقد غشي التوجع ملامح وجهه. بقيت بقربه ودموعي الصامتة. وحين مررت بهم وأنا خارجة، كانوا لا يزالون مشغولين بالحديث عن تجهيز الجناح الملكي وزيارة الوزير المُتمناة والضيوف والورد والبخور. وهُيئ لي كأنني سمعت كلمة محامي.

لحظة ركبت سيارتي، شعرت أن شيئًا من رائحة أبي صحبني، ولحظتها تمنيت لو أعود لأقبّله.

الكويت ٢/ ١١/ ٢٠٠٧

سرقات صغيرة

عشتُ عمري أخاتل النوم الخبيث، لكنني في الأيام القليلة الماضية صرت أتحايل عليه كي يأخذني فيأبى.

منذ الصباح والحسرة تلازمني.

أذكر صباح مات أبي، اجتاحني غضب كبير عليه. اختبأت وبكيت حرقتي وحدي، دون أن يراني أحد. بينما كانت أمي وأخواتي الصغيرات يبكين موته. ابتعدت عن الجميع، وقد اشتعلت نار محرِقة في قلبي، فأنا ابن التاسعة، لم أجد سببًا واحدًا يبرر لأبي أن يموت كما فعل.

تزوج أبي أمي ولم يبلغ السادسة عشرة، وكانت تصغره بسنتين. جلس معنا ليلة وفاته على الأرض حول سفرة العشاء، امتدت أيادينا جميعًا إلى صحن البَاقِلَّاء والخبز، وحين نهض هو ضخّم الفانوس بذبالته الصفراء خياله على الحائط.. ما زلت أذكر تلك الليلة ببردها القارص، تمددتُ وأخواتي الثلاث على الأرض قرب الموقد، وصعد أبي إلى سريره العالي، وبقيت أمي كعادتها إلى جانبنا تدفئ ليلنا، تقصّ علينا حكاياتها التي نحب. لا أدري متى سرقنا النوم، لكنني لن أنسى صرخة أمي الملتاعة بنحيبها، وهي تنادي على أبي:

ـ صكر.. صكر.

لم يجب أبي على ندائها، ظل ممددًا بنومته على سريره العالي.

وأبدًا لم أرَ خياله المضخّم بعد تلك الليلة على جدران غرفتنا الطينية. ومن ليلتها وأنا أكره النوم الخبيث، أحاذر أن يسرقني كما سرق عمر أبي.

* * *

قبل حوالي الساعة خرج أولادي وزوجاتهم وعيالهم. ودعتهم وأويت إلى فراشي. نصبت فخًّا للنوم الخبيث لكنه يتمنع عليَّ، ومن بعيد تلوح لي صورة أبي دون أن أقدر على اصطيادها.

لم يمضِ أسبوع على موته، حين انتقلنا: أمي وأخواتي وأنا للعيش في بيت خالي. يومها خاطبني قائلًا:

ـ أنت رجل الأسرة الآن.

لم أفهم معنى جملته، فنظرتُ إلى أمي، التي ردّت عليه بقولها:

ـ ناصر ولد طيب، وسيكون عند حسن ظنك.

خصص لنا غرفة صغيرة في بيته لنعيش فيها، ومنذ الصباح الباكر، أيقظتني أمي:

ـ ستذهب للعمل في دكان خالك.

متدثرًا بالصمت والأسرار سار أمامي، وتبعته أسرق النظر لخطواته المتمهلة. وقبل أن نصل إلى دكانه، توقف ملتفتًا إليَّ، ناظرًا في عينيَّ نظرة أخافتني. دفع كلماته متأنيًا:

ـ ستنفذ ما أطلبه منك دون أي سؤال أو اعتراض.

قطع جملته بما يوحي بأنه سيقول أهم ما فيها. ظلت نظرته تأكل وجهي. قال:

ـ عليك أن تكون أمينًا.

خفضت رأسي بالموافقة، بعدها استدار يكمل الطريق إلى الدكان، وبقيت أسير في إثره. وحين عدت ظهرًا، أخذتني أمي إلى صدرها، لاحت عبرة بكاء على نبرة صوتها:

ـ أنت رجل الأسرة.

جلسنا حول سفرة الغداء، في غرفتنا الصغيرة، فلاحظت أنها تحرك يدها دون أن تأكل معنا. سألتها عن السبب، فقالت:

ـ أشبع حين أشاهدكم تأكلون أنت وأخواتك.

انتبهت أن الطعام قليل، وأن أمي تسرق لقماتها، ولحظتها بدأت أسرق لقماتي مثلها، ومن يومها كرهت الأكل، صرت أسرق لقماتي وأنا أراقب يدي.

* * *

حرصت اليوم على البقاء يقظًا طوال الوقت، كي أستطيع النوم ليلًا. بقيت متماسكًا بحضور عيالي وعيالهم لم أبثهم جزعي، لكنها الذكريات تهجم عليَّ الآن، تضجّ في رأسي.

ربما بعد مرور خمسة أشهر على عملي مع خالي، وفي ظهر أحد

الأيام، انتهيت من غلق باب الدكان، وكان واقفًا بهدوئه يراقبني، فمدَّ يده نحوي بورقة بالية قائلًا:

ـ هذا راتبك.

فهمت أنه راض عني وأنه يجازيني على أمانتي. وتساءلت عن السبب الذي جعله يؤخر راتبي كل هذه المدة الطويلة. سار أمامي فتبعته. تحسست أصابعي ملمس الورقة الغريب في جيبي. وحين دخلت غرفتنا الصغيرة، وقبل أن أجلس أعطيت الورقة لأمي، قائلًا:

ـ هذا راتبي.

عادت نبرة البكاء إلى صوتها. قبّلت الورقة البالية ولمست بها جبهتها. همست بدعائها:

ـ الله يطيل بعمر خالك، ويخليك لي ولأخواتك.

عملتُ لسنين مساعدًا لخالي في دكانه، وكان كلما أعطاني راتبي حملته كاملًا إلى أمي، دون أن أستأثر بشيء منه. في إحدى المرات، ناولته لأمي، فردت إليَّ بعضًا منه قائلة:

ـ هذا لك.

يومها بدأت أمي تستقطع مبلغًا صغيرًا من مرتب كل شهر وتقدمه لي، لكنني تعوّدت أن أصرف مرتبي على أمي وأخواتي، لا أخصّ نفسي بشيء.

* * *

لا أدري لماذا أشعر الليلة بشوق جارف لها؟! يرحمك الله يا أمي.

أذكر تلك الفترة، ظلت تحوم حولي لأيام دون أن تفصح عن مرادها. كانت تسرق النظر إلى وجهي وطولي ومشيتي. سألتها:

ـ ما بك يا أمي؟

نفت أي شيء، لكن عينيها نطقتا بسرٍّ ما. وبعد مرور أسبوع، وبينما كنا حول دفء «الدوّة»، نَبَسَ صوتها ويدها تمسك بالمنقاش تقلب جمر الحطب، سألتني:

ـ ألا تريد الزواج؟

فاجأتني جملتها. بقيت ساكتًا. فأكملت هي:

ـ ابن خالك أصغر منك، تزوج منذ سنة.

سرقتُ النظر لوجهها، أبعدت نظرتها عني، ظلت تلهو بجمرات حطب الدوّة، قالت:

ـ وفرت من راتبك مبلغًا تستطيع الزواج منه.

أسرع إليَّ وجه شريفة ابنة جيراننا، التي كانت تأتي بصحبة أمها لزيارة أمي. تذكرت أنني سرقت بعض النظرات إلى وجهها الباسم، وأنها تبعثرت متوارية خلف ارتباكها. انتشلني صوت أمي:

ـ شريفة ابنة جيراننا فتاة طيبة.

وفي ليلة زواجي أوصتني أمي:

ـ لا تضايق زوجتك، وكن طيبًا معها.

ما ضايقتُ شريفة يومًا، ولا كنت فظًّا معها، وبالرغم من مرور أكثر من خمسين عامًا على زواجنا، وأن لنا ستة أبناء، فإنني بقيت أغافل شريفة، أستمتع بسرقة النظر إلى وجهها الذي أحب.

* * *

ـ شريفة.. سرقكِ النوم اللعين وتركني!

منذ ليال وهو يتهرب مني. أتعوذ من الشيطان. أقرأ بعض آيات القرآن، لكن الهواجس تلعب بي.

طوال الأسبوع يبقى بيتنا خاليًا إلا مني وشريفة. في عطلة نهاية الأسبوع يأتي أبناؤنا وزوجاتهم وعيالهم لزيارتنا، يمضون يوم العطلة معنا. شريفة وأنا ننتظر هذا اليوم. أمازحها قائلًا:

ـ يوم الجمعة يصير بيتنا مدرسة.

يعلو زعل حلو وجهها الباسم، تقول:

ـ قل ما شاء الله.

أقول: ما شاء الله، معاودًا سرقة نظراتها التي أحب.

تنشط هي منذ الصباح الباكر، تقف مع الطباخة في المطبخ، تجهّز أنواعًا كثيرة من الطعام، وحين يبدأون بالتوافد، أترك أنا الجميع وألهو باللعب مع الصغار، أوزع عليهم أنواع الحلوى، التي أشتريها طوال الأسبوع بانتظار قدومهم. وحين يحتضن كل منهم نصيبه، أستمتع بمناقرتهم، وسرقة بعض الحلوى منهم.

* * *

لا حول ولا قوة إلا بالله.. من أين أجيء بالنوم؟!

منذ مات أبي وهو نائم على سريره العالي، اعتدت على سرقة ساعات نومي القليلة. واعتاد جسمي الاكتفاء بأقل القليل منها. أستيقظ مفزوعًا في كل ساعة وكأني لا أصدق أنني لم أزل حيًّا. وحين كبرت صرت أبدأ يومي بصلاة الفجر، ومن ثم قراءة القرآن. مرارًا سألتني شريفة:

ـ لماذا تستيقظ منذ الفجر، ما الذي ينتظرك؟!

أخبرها أنني تعودت الاستيقاظ باكرًا، أخفي عنها لعبة الخوف والسرقة بيني وبين الموت. لكنها لا تقتنع.

في الفترة الأخيرة ألحت عليَّ للذهاب إلى الطبيب:

ـ يجب أن تجد حلًّا لقلة نومك.

ابتسمت لها، لكنها ظلت بغضب وجهها المحِب:

ـ لابدَّ أن تعرض نفسك على الطبيب.

ولأنني عاهدت أمي ألا أضايق شريفة، وأن أبقى طيبًا معها، ذهبت بصحبتها إلى طبيبة المستوصف، وكانت فتاة شابة:

ـ ما الذي تشكو منه يا والدي؟

بادرتني الطبيبة بالسؤال، فسرقت النظر إلى عينيْ شريفة، فقالت هي:

ـ هو لا ينام يا دكتورة.

طافت ابتسامة صغيرة على وجه الدكتورة، عادت تسألني:

ـ هل تشكو من أي مرض؟

ـ تعودت الاكتفاء بساعات نوم قليلة.

التفتت الدكتورة إلى شريفة وقالت:

ـ هذا لا يضر.

ـ لكنه لا ينام يا دكتورة.

خرجنا من المستوصف، وفي طريق عودتنا إلى البيت، طلبت من شريفة أن نقصد سوق الجمعية لشراء الحلوى لأحفادنا.

* * *

آه، تعبت، أتمنى لو أستريح.

تأخر النوم كثيرًا عليَّ.

اليوم جاء الجميع إلى بيتنا، لكنها المرة الأولى التي نجتمع فيها وشريفة غائبة ليست معنا. بقيت طوال المساء أحاذر الانفجار ببكائي. ما لعبت مع أحفادي، ولا تسليت بسرقة الحلوى منهم. وحين ودعني الجميع، بقيت وحدي، خرّت دموعي وعلا صوت انتحابي.

تُوفِّيَتْ شريفة في الأسبوع الماضي، سرقها النوم الملعون مثلما سرق أبي من قبل.

ـ لماذا يا نوم؟!

منذ رحيل شريفة، وأنا في كل ليلة، أرمي بجسدي وروحي ودموعي على الفراش، أغمض عينيَّ راغبًا في اللحاق بشريفة، لكنه النوم الخبيث يهرب مني.

كولورادو ـ بولدر ٣١/ ٨/ ٢٠٠٦

بـالونات

(١)

داخلني شعور غريب وأنا أقف منتظرًا خروج ابنتي من مدرستها، رأيت الأولاد والبنات يمشون حاملين حقائبهم المدرسية خلف ظهورهم، وقد ارتفعت صدورهم، وانتفخت بطونهم، لاحت عليهم سمنة غريبة. رحت أتابع ابنتي الصغيرة في مشيتها، فتراءى لي وكأن انتفاخًا مَرَضيًّا قد أصاب جسمها، فأثقل وأبطأ مشيتها.

(٢)

كنت جالسًا مع الرَّبْع في الديوانية، نتابع إحدى مباريات دوري كرة القدم الإسباني، ولحظة انتهينا من طعام العشاء، لاحظت أن كرش «أبو» عبدالكريم بدا منتفخًا تحت دِشْدَاشَتِه. هيئته ذكّرتني بلقائي الأخير مع صديقي «أبو» جاسم في مكتبه. نهض ليودعني، فلَفَتَني ارتفاع يعلو صدره، بادرته:

ـ ما شاء الله، بدأت تسمن.

أجابني بنبرة ما استطعت تفسيرها:

ـ سمنة الوجاهة.

(٣)

زرت فرع البنك قرب بيتنا، وبينما أنا جالس عند مسؤول الحسابات الشخصية، دخل رجل عصف الضيق والغضب بوجهه. دون أن يُلقي التحية، مدَّ يده الراجفة بأوراق يحملها، أراد إنهاء معاملته. فاستمهله مسؤول الحسابات بلطف:

ـ انتظر قليلًا لو سمحت.

فجأة اشتعل الرجل غضبًا، وعلا صوته مهددًا:

ـ لن أنتظر دقيقة واحدة.

رحت أنظر إليه، ولثوان هُيئ لي أن جسمه أخذ ينتفخ تحت دِشْدَاشَتِه، ارتفع صوته ثائرًا بصراخه يخاطب الموظف:

ـ ستنهي المعاملة رغمًا عن أنفك.

ـ لكن يا أستاذ.

ـ اخرس، عليك أن تعرف من أكون.

شيئًا فشيئًا زاد جسم الرجل انتفاخًا، جحظت عيناه، غدا وجهه كالكرة، تناهى لي صوت تمزق دِشْدَاشَتِه، أخذ يرتفع عن الأرض، ولحظتها حدثت فرقعة عالية، لينفجر الرجل بعدها مختفيًا كأنه لم يكن.

ربطت الدهشة لساني، غير مصدق لما يجري، لكن صوت مسؤول الحسابات عاد يخاطبني:

ـ لا عليك، لنكمل.

(٤)

وصلت إلى مكتبي وحادثة انفجار الرجل تصهل في رأسي.

كنت سارحًا بأفكاري، حين انتشلني صوت السكرتيرة، تخبرني بوصول نوال. كنتُ معجبًا بنوال أيام الدراسة الجامعية: نداءات جسدها الشهي، وشيء ما في نظرة عينيها، وروحها المرحة. اعتدلت خلف مكتبي، تأكدت من وضع غُتْرَتِي وعِقَالِي، وتعطرت قبل أن آذن لها بالدخول، وكم كانت دهشتي، حين رأيت «نوال» وقد استحالت برميلًا يتدحرج!

جلست على الكنبة لتحتل مكان شخصين. شعرت بها وقد تعمدت وضع حقيبتها ماركة «إل. في.» إلى جانبها، بينما أثقل خاتم الألماس اللامع إصبعها، وحزّت ساعة «الشوبارد» بالألماس معصمها.

راحت ترسل كلماتها من فيها، الذي صغر حتى كاد يختفي. وما زاد من حيرتي، أنها تحدثت معي بترفع ظاهر، مما جعلني أرتبك في ردودي، وأبقى طوال اللقاء، سارحًا في انتفاخاتها، مستذكرًا صورتها أيام الجامعة. ولحظة غادرت مكتبي، أسرعت أتناول المرآة بعد أن عبرني طيف فكرة أخافتني. رحت أدقق في تقاطيع وجهي مرددًا تساؤلي:

ـ لماذا ينتفخ جميع من حولي؟!

(٥)

في طريق عودتي إلى البيت، وبينما كنت أقف بسيارتي قرب الإشارة الضوئية، خُيل لي وكأنني أرى رجلًا منتفخًا يرتفع من فوق الأرض، وما لبث أن فرد ذراعيه، وتطوطح في الهواء. فأسرعت أخرج رأسي من نافذة السيارة غير مصدق، لكن منبهات السيارات ضجت من ورائي لحظة تغيّر لون الإشارة إلى الأخضر. فانطلقتُ لأقف في أقرب مكان، وأنزل مسرعًا. رحت أفتش في كل الاتجاهات، لكن دون جدوى، كأن شيئًا لم يكن. مرَّت بي مجموعة من الأشخاص يرتدون ثيابًا مختلفة، وخيل لي كأن ريحًا خفية تملأ ثيابهم فتبدو منتفخة كالبالونات.

(٦)

على مائدة الغداء، أخبرت زوجتي:

ـ شاهدت رجلًا بالونًا، قطع الطريق، ثم ارتفع في الفضاء.

تبسمت قائلة:

ـ أنصحك بفحص نظرك.

وأكملت تمازحني:

ـ وربما عقلك.

أحجمت عن قصّ حادثة رجل البنك عليها. تحرك بي السؤال:

ـ لماذا ينتفخ بعض الناس كالبالونات؟!

عوت الفكرة في رأسي. تذكرت «أبو» عبدالكريم، و«أبو» جاسم، ورجل البنك. وأسرعت إليَّ صورة نوال، تخيلتها تفرد ذراعيها وتطير محلقة في الهواء.

(٧)

في طريقي إلى مكتبي صباح اليوم، تعمدت قيادة سيارتي بسرعة منخفضة، بقيت أفتش ناظرًا إلى السماء، علني أرى أي شيء، لكنني لم ألمح شيئًا.

دخلت مكتبي، فغرقت في المكاتبات الإدارية والوظيفية، بقيت موزعًا بين ردود الخطابات البريدية والتليفون. كانت الساعة قد جاوزت العاشرة والنصف، حين رفعت رأسي صوب نافذة مكتبي في الدور الثالث والعشرين، لكن مشهدًا صعقني، وشلَّ حركتي: رأيتُ بشرًا بالونات، نساءً ورجالًا وأطفالًا يحلّقون في الفضاء، تتدلى منهم خيوط ملونة.

أصابني المشهد بالذعر، ونشر الرجفة في أوصالي. السماء كانت مزروعة بسحابة من البالونات البشرية الملونة، بخيوطها المتدلية، وما بين لحظة وأخرى تنفجر إحداها مختفية.

حاولت النهوض من مقعدي، لكن أحد الرجال البالونات اقترب من زجاج النافذة، متأبطًا ذراع فتاة بالونة، تعلو وجهها ابتسامة بلهاء. راحا يشيران لي بحركات لم أفهمها.

الكويت ٩/ ٧/ ٢٠٠٦

ذبابة

لن أنادي على صبيحة.

هذه ذبابة بائسة. حظها العاثر ساقها إلى هنا. الشباك الوحيد في غرفتي مغلق دائمًا. صبيحة لا تترك منفذًا مفتوحًا، تقول:

ـ الهدوء ألزم لك.

ما عدتُ أذكر، مرّت فترة طويلة دون أن أزيح ستارة النافذة، أنظر إلى الشارع المجاور. أحيانًا أكون مشغولًا في كتابة إحدى مقالاتي، فتدخل عليَّ ضجة مفاجئة. أضع القلم، أنقطع لبرهة عن الكتابة. تحملني الأصوات المتداخلة إلى صخبها. أهمّ بالنهوض من مكتبي لأبعد الستارة، وأرى ما يجري خلفها. أبقى لحظات معلقًا بين النهوض أو البقاء جالسًا، أرهف السمعَ، أهمس لنفسي:

ـ أبقى في كتابتي أفضل.

أحاول طرد الضجة عني. تنبت رائحة الدخان في رأسي، أشتاق إلى سيجارة بدخانها الأبيض المتصاعد. تأتيني تحذيرات صبيحة المتكررة، فأنفخ دخان صدري، وأعود أنكبّ على الكتابة.

من أين دخلت هذه الذبابة البائسة؟

صبيحة تنظف ستائر غرفة مكتبي صباح كل يوم خميس بعد خروجي من البيت. تنفض عنها ما علق بها من غبار. تعرفني لا أطيق ضجيج المكنسة الكهربائية، ولا يحتمل صدري ذرات الغبار المتطاير.

ـ توكل على الله.

تخاطبني، تحثني على الخروج. أكون للتو أنهيت اغتسالي، وتكون قد جهّزت لي الدِّشْدَاشَة والغُتْرَة والعِقَال، وكذا الجورب والحذاء اللامع. تقف تراقبني بينما أرتدي ملابسي. وفي كل مرة، تمدُّ يدها ترتّب من وضع الغُتْرَة والعِقَال فوق رأسي. تخطو إلى جانبي، وقبل أن أخرج تبخّرني، وتعطرني بدهن العود وتودعني:

ـ في أمان الله.

تحذرني:

ـ التدخين يتلف صدرك.

أغلق الباب، أضع نظارتي الشمسية، أستقبل الهواء، وتخفّ خطوتي، أركب سيارتي. آخذ طريقي إلى «المقهى الشعبي» قرب شاطئ البحر. ألتقي صديقي أبا يعقوب.

أكثر من عشرين سنة، وأنا وهو نجتمع على الموعد نفسه. من يصل قبلًا، يأخذ طاولة الركن الصغيرة بمواجهة البحر، يجلس بانتظار صاحبه. في أحيان كثيرة، نطأ عتبة المقهى في اللحظة ذاتها. نتبادل السلام والتحية. نردد على بعضنا:

ـ صبّحك الله بالخير.

نجلس نَجْتَـرُّ أخبارنا الصغيرة، ومواضيع الجرائد ونشرات أخبار التليفزيون، وربما قراءاتنا الجديدة، وذكريات أيامنا الماضية. وتهزني النشوة لحظة يطلب أبو يعقوب الدومينو. حينها يرتفع صوته، يسألني بخبث مغرٍ:

ـ تأخذ سيجارة؟

أنظر إليه، يبتسم، ويكمل مشجعًا:

ـ سيجارة واحدة في الأسبوع لا تضرّ. ما عليك من أم العيال.

يمدّ يده بالسيجارة. أتناولها مسرورًا، أسحب نفسي الأول، وأطلق الدخان وصوتي:

ـ ستنالك اليوم هزيمة ساحقة.

أنفض دِشْدَاشَتِي أكثر من مرة قبل أن أركب السيارة. أنزل زجاج النوافذ كي تخرج الرائحة. لكن، وفي كل مرة، أشعر بصبيحة وكأنها تختبئ خلف الباب، تفتحه لحظة أدير المفتاح، تستقبلني كما ودعتني، وصوتها:

ـ حياك الله.

وما تلبث أن تطلق آهتها:

ـ سامحك الله.

أفهم أنها تتكلم عن ضيقها برائحة السيجارة، فأتركها وأهرع إلى مكتبي، فيلحقني صوتها:

ـ نظّفت الغبار عن المكتب والكتب.

أردّ عليها شاكرًا:

ـ تسلمين.

أسرع إلى مكتبي وكتاباتي، وكأني غبت عنهما دهرًا.

سأتأخر بسبب هذه الذبابة البائسة، لم أكمل مقالي الأسبوعي. نصف ساعة كاملة مضت، ولم تزل تشاغلني.

لا أدري من أين دخلت؟

تحوم فوق رأسي. ما عدتُ قادرًا على التركيز أو الكتابة. ربما عليَّ أن أنادي صبيحة.. بل سأتخلص وحدي منها. أين هي منشّة الذباب البلاستيكية الصفراء؟ رأيت صبيحة آخر مرة تضعها تحت رف المكتب.

لن أنادي على صبيحة. لا داعي لأن أعتمد عليها. سأعالج الموضوع بنفسي. لأترك الكتابة قليلًا، أبحث عن المنشّة أولًا.

منذ تقاعدتُ من عملي، وجلست في البيت، تغيّرت علاقتنا، اخترتُ أنا الوحدة، لجأت للقراءة والكتابة، وتولت هي إدارة وترتيب كل أمور البيت. تبقى مشغولة طوال الوقت دون أن أسمع حسها. صرنا نحيا معًا وأقل القليل من الكلام. لا أذكر أنها قصّرت معي في يومٍ.

ها هي المنشّة. أين الذبابة؟

يجب عليَّ تسليم المقالة غدًا صباحًا للجريدة، أخشى أن أتأخر. أين اختفت الذبابة؟ ما عدتُ أسمع طنينها. لابد أنها لاذت بزاوية ما. لن تستطيع مغادرة الغرفة.

نسيت إلى أين وصلت في المقالة. عليَّ أن أبدأ قراءة الموضوع من جديد حتى أستطيع إكماله.

أحيانًا أعجب لصبيحة، لا تكاد تهدأ، تدور كالماكينة، منذ أن تستيقظ، وإلى أن تأوي إلى فراشها. رفضت أن تأتي بخادمة للبيت. أختها أم هلال تقول لها ضاحكة:

ـ أشك أنك امرأة كويتية.

صبيحة تعمل بصمت ونظرة جد تحتل وجهها. ابنتنا ريما تزوجت وانتقلت إلى بيت زوجها، وسافر ولدنا شهاب مع زوجته إلى كندا لإكمال دراسته العليا، وبقينا وحدنا.

أنا لا أعلم شيئًا عن شؤون البيت، أستيقظ في السابعة، أقرأ جريدتي الصباحية مع كوب الشاي، بعدها تبدأ هي تحوم حولي تستعجلني. فأنهض أخلع عني دِشْدَاشَة النوم، وألبس دِشْدَاشَة العمل. تمشي معي، فأدخل إلى مكتبي، توصيني قائلة:

ـ لا تقض الوقت في القراءة، عليك أن تكتب، ولا داعي لسرقة التدخين.

تغلق الباب ورائي. أزدرد تنبيهها بجملتها، لا أعلّق بشيء.

آخذ مكاني خلف مكتبي، أبدأ بالقراءة قبل الكتابة. لا أدري كيف يمضي الوقت. فجأة أجدها تقف أمامي. يُخيل إليَّ أحيانًا أنها تخرج

لي من تحت المكتب. تنتصب بهيئتها ويدها الممدودة، تأتيني بعصير البرتقال وقطعة «الكيك». تفزعني بانبعاثها المفاجئ.

مرارًا فكرت أن أصارحها بأن اهتمامها الزائد بي يربكني، ودائمًا أشعر أن شيئًا يصدّني.

عاد طنين الذبابة المزعج. سأنتظر لحين تحطّ بقربي، فأسدد لها ضربة واحدة، بعدها أنادي على صبيحة، فتأتي مفزوعة كعادتها. أطلعها على المفاجأة. أشير إلى الذبابة المسكينة، لترفعها هي بورقة «الكلينكس». تنظف مكانها.

أين ولّت ذبابة البؤس؟! المنشّة في يدي، ما عدت أحتمل.

أرفف المكتبة تلفّ حوائط الغرفة، محشوة بالكتب. ربما صار علينا أن نضيف أرففًا جديدة، سأكلم صبيحة لترتب الأمر مع النجار.

سأتأخر عن كتابة مقالتي. منذ بدأت الكتابة للجريدة، ما تخلفت يومًا عن موعد تسليم مادتي.

ذبابة صغيرة بائسة، وورطة مزعجة!

لأضع المنشّة جانبًا، أتجاهلها أعود للكتابة. أبدأ مجددًا بقراءة الموضوع.

ـ اللعنة.

رجعت تحوم بطنينها فوق رأسي، أين المنشّة؟

ها قد حطّت. لأختار الوضعية المناسبة، لا أريد أن أضيع هذه الفرصة.

ـ ذبابة مؤذية.

عادت تطير. سألاحقها. لن أكفّ عنها. تحطّ على الكتاب.

«أضرب».

تفلت مني. أين ولّت؟

«أضرب».

سأبقى أجري خلفها.

«أضرب».

لابدَّ أن أقع بها، تقترب من الباب، لأتركها تحط. سأعطيها الأمان ريثما ألتقط أنفاسي.

من أين جاءت؟ مؤكد أنها دخلت عن طريق الخطأ، وحين أحسّت بصمت المكان، ما استطاعت احتمال الحبس. لماذا أعاقبها؟!

ذبابة بحظ عاثر!

لم تطق البقاء مسجونة هنا، تريد الخروج لضوء الحياة. لن أقتلها. سأعينها على الخروج.

لِأُزِحْ الستارة، وأفتحْ النافذة.

الكويت ٢/ ٦/ ٢٠٠٠

خـاتـم

أنزل للسلام عليها، والجلوس بقربها بقصد تسليتها وإخراجها من وحشة صمتها. لكنها أمي، سرعان ما تفرش سجادة حزنها، تضجّ بشكوى وحدتها ووجعها، تتنهد والأسى يغشي حسّها:

ـ راحت أيام زمان، وراح عمري.

وكعادتي في كل مرة، أهدئ خاطرها، أخفف عنها:

ـ الحمد لله على كل حال يا أمي، أنتِ بصحة وخير. أبناؤك حولك والكل يتمنى رضاك.

وأعرج بحديثي معها، أقول لها:

ـ هذا حال الدنيا يا أمي، لا أحد يبقى شبابًا طوال عمره، حتى أنا ابنك.

أبيّن لها أنني أعاني من السُّكَّرِي، ومن قرحة المعدة، وأنني أرتدي النظارة الطبية، وأنني.. لكن أمي تبقى أسيرة عالمها بحسرتها على أهلٍ غادروا، وزمان أحبةٍ انقضى. وكما لو أنها لا تسمعني، تكمل شاكية:

ـ حين كنت صبية لم أكن أمشي مشيًا، كنت أقفز على رؤوس أصابعي.

تنخرط تُعيد عليَّ قصصها التي حفظت. لا تملّ التأسي على أيام شبابها، وكيف آل بها الحال:

ـ لا اعتراض على أمر الله، طوال اليوم ألازم سريري، ما عدت أستطيع المشي.

أبقى بقربها أستمع شكواها، أردّ عليها أحيانًا، وأتابع برامج التليفزيون في أحيان أخرى، ولحين يصل أخي الأصغر، فأنهض مستأذنًا، أخلي له المكان كي ينال نصيبه من شكوى أمي وتذمرها بحالها.

قبل أكثر من ساعة، رنَّ جرس التليفون، فوصلني صوتها منفعلًا:

ـ تعال حالًا.

حاولت الاستفسار منها، فصدتني بغضب قائلة:

ـ تعال خذ هذه الخادمة اللعينة عن وجهي، لا أريد أن أراها.

أغلقت السماعة قبل أن توضح شيئًا.

أسرعت أنزل إليها، فوجدت الخادمة منحشرة في زاوية الغرفة تنشج ببكائها، بينما خمط الضيق وجه أمي:

ـ هذه حرامية، سرقت الخاتم.

ـ أي خاتم يا أمي؟

ـ خاتمي الذهب ذو الفص الشذر.

وأضافت تؤكد اتهامها:

ـ لا أحد بجانبي، كلٌّ لاهٍ بحياته، وحدها تلازمني طوال الوقت، تكنس وترتب غرفتي، منْ يكون غيرها؟!

ـ والله العظيم أنا ما أخذت شيئًا.

نفت الخادمة باكية:

ـ اسكتي، لا أريد سماع صوتك، ولا أريد رؤيتك.

نهرتها أمي، والتفتت تخاطبني وعصبيتها:

ـ خذها حالًا، وأحضر لي واحدة أخرى غيرها.

ـ والله العظيم..

انبعث صوت الخادمة مجددًا، لكن أمي أسكتتها:

ـ العظيم يأخذ عمركِ.

اتصلتُ بأختي، فجاءت لتعاونني على حل المشكلة. أنزلنا أمي من سريرها، بدت لي أخف وأنشط من عهدي بها. أجلسناها على كرسيها الخاص، فأشارت تخاطب أختي بصوتها الآمر:

ـ فتشي أغراضها.

نظرتُ إلى الخادمة، فنهضت لتحضر حقيبة ملابسها.

بين الخجل والحرقة، نثرت أغراضها وظلت واقفة، فصرخت بها أمي:

ـ بسرعة، أحضري لي عصير برتقال.

بقيت أنا بعيدًا. بدأت أختي رحلة البحث عن الخاتم المفقود بين طيات ملابس الخادمة. بينما أمي تتهدد بإخبار الشرطة، وأنها سترسل الخادمة للسجن قبل أن ترحلها إلى بلدها.

اختليت بالخادمة محاولًا استدراجها في الكلام. طمأنتها، قلت لها إن أمي امرأة كبيرة، وربما تكون قد نسيت الخاتم في أي مكان. لكن الخادمة ظلت بإنكارها وبكائها بقسمها:

ـ والله العظيم ما رأيت الخاتم.

حين تعبنا أنا وأختي، استرضيت أمي، ووعدتها بأنني سأعوضها عن خاتمها، أشتري خاتمًا جديدًا لها:

ـ تحضر لي خادمة جديدة أولًا.

اشترطت عليَّ:

ـ حاضر يا أمي.

تركتُ غرفتها، بينما انحنت الخادمة بانكسارها تلمّ أغراض حقيبة ملابسها كيفما اتفق.

كنت أهمُّ بصعود السلّم، حين قابلني أخي الأصغر داخلًا لزيارة أمي في موعده اليومي:

ـ مساء الخير.

حيّاني، ولحظة لمح وجهي، أسرع يسألني:

ـ ما بك؟

ـ أمي ثائرة، خاتمها..

ـ الشذر؟

التقط الكلمة من لساني، قبل أن أنهي جملتي، وابتسامة ماكرة تعلو وجهه، ومدَّ يده إلى جيبه:

ـ هذا؟

احترت ماذا أقول له، كتمت غيظي وسألته:

ـ الخاتم كان عندك؟

ـ سرقته بالأمس، سرقة بيضاء.

قال وقد اتسعت ابتسامته:

ـ سأردّه لها الآن.

أدرتُ وجهي عنه وقد أزعجني سلوكه غير المبرر. أخذت طريقي أصعد إلى شقتي، فلحقني صوته:

ـ هل اشتكت أمي الليلة من وحدتها أو مرضها؟

انتبهت أنني منذ مدة طويلة، لم أرَ أمي بحيويتها وهمتها كما الليلة.

ـ خبيث.

نظرت إليه وقد أدركت خطته. خفَّ بالدخول لزيارة أمي. فأسرعتُ ألحق به كي أرى تهلل وجه أمي بفرحتها.

الكويت ٢١/ ٧/ ٢٠٠٠

عطر ليمون

أحيانًا دون سببٍ، ربما لكلمة أو نظرة منها، فجأة ينزل عليَّ قنوط كالحجر، يشمل روحي ضجر مقيت، أشعر بثقل أنفاسها يحوم حولي. يهفو قلبي لعالم آخر. تحضرني وجوه نساء وفتيات كثيرات عرفتهن. أدرك أنني مللت عشرتها، ما عدت أطيق البقاء بقربها.

مساء البارحة، كنت أتصفح إحدى المجلات، وكانت هي لاهية في المطبخ. جاءت إليَّ رائحة الـ«التشيز كيك» التي أكره. تركت مكاني، ارتديت «تي شيرت» وبنطلون «جينز»، وبهدوء انسللت من البيت.

سلكت شارع الخليج. آثار الشمس الغائبة كانت لا تزال تضيء السماء، بينما أشباح ظلمة آتية تحوم فوق صفحة البحر الساكنة.

دخلت مطعم الـ«فد ركرز». حملتُ كوب القهوة، أبحث عن مقعد. رأيتها تجلس وحدها، امرأة في منتصف ثلاثينياتها، بقصة شعر قصيرة، وقميص زهري يكشف برونز بشرتها الشهي، وبنطلون كحلي وصندل أبيض. كانت تدخن بطريقة توحي بصداقتها الحميمة مع السيجارة. اقتربت منها، سألتها بتأدب:

ـ هل أستطيع الجلوس؟

رفعت إليَّ عينين متحفزتين، همست مستغربة:

ـ يمكنك الجلوس حيث تشاء.

جلست قبالتها. وصلتني رائحة عطرها الليموني. لم يكن أمامها سوى منفضة سجائر:

ـ تفضلي.

وضعت كوب قهوتي أمامها.

ـ شكرًا.

قالت، ودفعت كرسيها ناهضة:

ـ سأحضر طلبي.

تركت علبة دخانها وولاعتها الذهبية الصغيرة. لمحت حقيبة يدها وبقربها تليفونها النقال.

متعمدًا تركت تليفوني النقال والبيجر على الطاولة في البيت: «لن تستطيع زوجتي الوصول إليَّ، ولن تزعجني».

امتدت يدي، أخذتُ سيجارة من علبتها. مضى عليَّ أكثر من سنة لم أقرب التدخين. دار طعم الدخان الحريف في فمي، أسرعت إليَّ لذة طالما جربتها. سحبت نفسًا طويلًا، أرسلت بالدخان يملأ صدري، لمت نفسي: مغفل أنا، ما كان عليَّ أن أسمع نصيحتها الغبية وأترك التدخين. قليلة متع الحياة.

عادت تحمل كأس عصير برتقال وقطعة تشيز كيك:

ـ استلفت سيجارة منكِ.

قلت لها مشيرًا إلى علبة سجائرها:

ـ رأيتك.

قالت، وأكملت:

ـ يمكنك مشاركتي الكيك لو أردت أيضا.

أنعشت جملتها قلبي، قلت:

ـ لا أحب التشيز كيك.

أخذتْ مكانها. شعرتُ كما لو أن كلامًا يلوح خلف نظرتها، فتسلل الودُّ إلى نظراتي. وتجرأ صوتي:

ـ لا أظنكِ متزوجة.

احتست شربة عصير، ولأكمل مناغاتها قلت:

ـ إذا تزوج الرجل فقد روحه.

ـ وإذا تزوجت المرأة أذلت نفسها.

ردت على جملتي فداخلني نزق مفاجئ. شعرت أنني أغادر كآبتي، تنحل عقدة لساني:

ـ الزواج يأتي بالروتين والخمول والأحاديث المكررة.

ـ والتملق والكذب.

أكملت هي الجملة. بدا وكأن مزاجي قد انشرح، وأن روحي ترفرف. تمنيت لو تطول بنا اللحظة. امرأة متجاوبة تهزّ قلب الحجر.

لاحظت أنها تتلذذ بأكل الكيك. اشتهيت لو أشاركها.

ـ لماذا تكره التشيز كيك؟

سألتني دون أن ترفع رأسها:

ـ زوجتي تجيد عمله.

لمحت شامة عند منبت صدرها.

ـ تأتي كثيرًا إلى هنا؟

ـ أحيانًا.

ـ لديك وقت؟

ما فهمت سؤالها. تلاقت نظراتنا، فسألتني:

ـ إلى متى تستطيع البقاء معي؟

أربكني سؤالها الجريء. امرأة تعرض عليَّ صحبتها، دفعت بصوت مهزوز:

ـ لا شيء ينتظرني.

ـ حسنا، قُصَّ عليَّ حكاية مسلية.

لاحظت أنها تتكلم دون تحفّظ أو تردد. غرست عينيها في عينيَّ، وحسّها:

ـ حكاية مسلّية وليست سخيفة. حكاية بعيدة عن زوجتك.

جعلتُ أطالعها. شعرتُ أني لا أجد ما أقول، فبادرتني:

ـ نتمشى قليلا.

نهضنا معًا، أفسحتُ لها الطريق. تكاد تقاربني طولًا. تمشي بثقة. أحببت تسريحة شعرها القصيرة وعطرها الليموني، وكوني أمشي إلى جانبها.

حين صرنا في الموقف، بادرتني:

ـ نركب سيارتي.

بلبلني سلوكها المتهور. تلفّتُّ حولي فطالعني وجه البحر الغائم. ركبت إلى جانبها.

ـ لم أزل أنتظر الحكاية المسلّية.

قالت وكأنها تنتشلني من تشتت أفكاري، وأكملت:

ـ رجل لا يعرف حكايا مسلّية، لا يستحق الصحبة.

كل ما فيها يفاجئني.

ـ لا تحضرني أية حكاية.

ـ ستبقى ساكتًا.

أدارت أسطوانة «سي دي»، فانطلقت موسيقى عذبة:

ـ جوهان شتراوس، الدانوب الأزرق.

الموسيقى وعطرها وشارع الخليج وظلمة البحر، أية مصادفة عجيبة رمت بي إليها. انتبهت أنني لا أعرف اسمها:

ـ اسمي طارق.

قلتُ معرِّفًا.

ـ أنتَ الذي فتح الأندلس.

علّقت وانطلقت بقهقهتها، فشعرت بها تتمايل واللحن الراقص. قالت:

ـ ليس أجمل من رقصة الدانوب، رجل وامرأة ولحظة رائقة، ورقصة رشيقة.

كل ما فيها يُنعش القلب.

ـ إلى أين تريد أن نذهب؟

ـ ليس من مكان في رأسي.

ـ لا شيء في رأسك، لا حكاية ولا مكان.

علّقت ضاحكة. ارتفع رتم الموسيقى. أصبحت أكثر رقصًا:

ـ ألا تتذكر قصة واحدة مسلّية؟

عادت تسألني:

ـ كيف تريد لزوجتك أن تعيش معك؟! رجل بدون حكاية واحدة مسلّية لا يُطاق.

شعرت بأن رأسي خال من أي كلمة. هدأت الموسيقى، داخلها شجن خفي:

ـ سنذهب إلى شقتي.

اقترحت هي، فقرصني ارتباك خفي.

ـ لماذا أنتَ صامت؟

ابتسامة فاترة طفت على وجهي. دوّخني عطرها، بتسريحة شعرها، وبرونز ذراعيها الشهي. وتوقع ما هو آت، وموسيقى شتراوس الدائرية.

«ما الذي تخبّئه هذه المرأة؟». سألتُ نفسي.

فجأة توقفت أمام بناية عالية، ما سبق لي أن لاحظتها. حزرت أنها في منطقة «السالمية».

دخلتُ شقتها، فهبَّ عليَّ عطرٌ منعش لفَّ أرجاء المكان:

ـ سأغيّر ملابسي.

دعكتُ عينيَّ: هل أنا في حلم؟ امرأة جميلة ألتقيها في مطعم، فتأخذني إلى شقتها. هل من الممكن أن يحدث هذا في الكويت؟!

ـ يمكنك أن تفتح التليفزيون، أو تختار أي فيلم فيديو.

جاءني صوتها، قبل أن تخرج عليَّ بقميص نوم أزرق يشفّ عن خيال جسدها الشهي:

ـ أنتظر الحكاية المسلّية التي ستقصّها عليَّ.

بدت أصغر سنًّا بلباسها الشفاف، وقصة شعرها، وليمونها، وخفة خطواتها. جلست بقربي، همست:

ـ اسمك طارق، على شواطئ إسبانيا أحرقت سفنك.

مالت تطوّق عنقي بذراعها الشهي. صفّق قلبي كطفل. عصف بي العطر الأخضر. عادت بي سنواتي، قلت لها:

ـ أكاد لا أصدق.

فجأة تناولت يدي ونشبت أسنانها تعضّني. تلذذتُ وأنا أحسُّ بفمها يطبق على ذراعي وأنفاسها الدافئة، ورائحة حدائق الليمون، أغمضت عينيَّ وغبت معها.

* * *

أذكر أننا سهرنا معًا حتى الفجر، وأذكر أننا ما تركنا ركنا في شقتها إلا وزرعناه بجنوننا المشتعل، وأنني شعرت بها في رأسي وعينيَّ وفمي وصدري وقلبي وأصابعي.

أذكر أننا تركنا الشقة صامتين. تحاشت هي أن تنظر إلى وجهي. تمنيت لو أحتضنها إلى صدري، أشمّ عبيرها، تلتقي عيوننا للمرة الأخيرة. أخذتني بسيارتها. عدنا نسلك شارع الخليج. كانت موسيقى شتراوس غائبة، وكان البحر مظلمًا، ووجهها بتسريحة شعرها القصيرة يبدو ذابلًا. ظلت هي نائية بصمتها. وبقيت أنا غاطسًا في مقعدي وحزني.

رجعت بي إلى مطعم «الفد ركرز»، مشت أمامي بخطوات واهنة. وتبعتها كطفل يتيم. قصدنا الطاولة ذاتها، جلستُ أنا في المقعد نفسه، أشارت هي لي، وصوتها:

ـ لحظة من فضلك.

تركتني بجلستي وعلبة سجائرها وولاعتها الذهبية الصغيرة وغابت. انتظرتها، تلفّتُّ حولي، وانتظرتها. طال انتظاري. امتدت يدي أخذت علبة السجائر والولاعة، دسستهما في جيبي، ونهضت أبحث عنها. فتّشت زوايا المطعم، قصدت موقف السيارات.

تبخرت، كما لو أنها لم تكن.

«أين ذهبت؟».

سألت نفسي. تذكرت زوجتي ورائحة الـ«التشيز كيك». مشيتُ بخاطر كدر، ولحظة فتحتُ باب سيارتي. تلمستُ علبة سجائرها وولاعتها في جيبي، وانتبهت إلى آثار أسنانها مطبوعة على ذراعي.

الكويت ٢٩/ ٦/ ١٩٩٩

المدير العام

ـ أشعر بالنعاس.

دفعت ياسمين جملتها بتكاسل، ونهضت واقفة. أطفأتُ أنا تليفزيون الصالة، قلت وكأني أحدّث نفسي:

ـ سأبقى قليلًا.

وموضحًا أضفت:

ـ لا أرغب في النوم.

ـ تشعر بأي تعب؟.

احتل خوف مفاجئ نظرة عينيها. فطمأنتها:

ـ لا أشكو من أي شيء.

أسرعت تقاطعني:

ـ كنت ساكتًا طوال جلستنا.

ـ السكوت ليس مرضًا.

هزّت رأسها مرددة:

ـ أعرف.. أعرف.

انسحبت إلى غرفة نومنا، وعدم الرضا يثقل خطوها.

اليوم ضايقني توفيق. سيقضي على المؤسسة بحسابات مصالحه ومزاجيته وقراراته الخاطئة. للسنة الثانية والمؤسسة تُمنى بخسائر فادحة.

كنت غارقًا في تدقيق التقرير المالي، حين اتصلت سكرتيرة مكتبه:

ـ السيد المدير العام يطلبك.

دخلتُ عليه، فأشار لي بالجلوس، وبادرني:

ـ ما رأيك بعثمان، مدير إدارة شؤون الموظفين؟

ما فهمت مغزى سؤاله. أجبت:

ـ زميلي منذ سنوات، رجل مخلص ومُلم بعمله.

ـ أريد نقله إلى إدارة أخرى.

استغربت عبارته:

ـ هل أحضر لك أي شيء؟

انتشلني صوت ياسمين، واقفة تنظر إليَّ وأنا في جلستي:

ـ هل ضايقتك بشيء الليلة؟

ـ حبيبتي، لست متضايقًا، فقط أريد أن أكون وحدي.

ـ كما تشاء.

زمت شفتها السفلى بما يعني ضيقها، واستدارت عائدة إلى غرفة نومنا.

توفيق ابن جيراننا. تُوفي أبوه ولم يبلغ السادسة. أذكر كيف كانت أمي تشتري لنا ملابس وأحذية متشابهة. بلل الدمع وجه أمه في أكثر من موقف، رافعة صوتها بالدعاء لأمي:

ـ الله يكثّر خيركم.

أنا وتوفيق أنهينا المراحل الدراسية معًا، الابتدائية والمتوسطة والثانوية. أبي كان يصطحبنا بسيارته إلى المدرسة.

دخلنا جامعة الكويت في بداية السبعينيات. اخترتُ أنا دراسة الاقتصاد وفضّل هو التاريخ، قال لي:

ـ لست ابن تجار. أمقت الحساب والمحاسبة، ثم إنني أحب قصص وحوادث التاريخ.

مضت سنتان على مجيء توفيق إلى المؤسسة ولم يزل يتخذ قراراته الخاطئة. زوج أخته مسؤول كبير في الدولة رتب له المنصب. هو لا يفرق بين الين الياباني والمارك الألماني. أقال أكثر من مدير، وفرط بأكثر من موظف جيد. أساء كثيرًا لسمعة المؤسسة. سعر سهمها في السوق بانحدارٍ دائم. حين أقابله أشعر أنني أمام توفيق آخر. نبّهني مرة:

ـ لو سمحت نادني بأبي مشاري.

استغربت رنة صوته الآمرة. رحت أنظر إليه، فتقافزت أمامي صور كثيرة من صداقة طفولتنا: تذكرت دراستنا، وأعطيات أمي، ودموع أمه:

ـ أنت متأكد ألّا شيء يؤلمك؟

ياسمين تسألني. وقفت أمامي بقميص النوم، وقد أكل القلق صفحة وجهها:

ـ هل أستطيع مساعدتك بأي شيء؟

ـ نعم تستطيعين.

لاح طيف لهفة على وجهها، فقلت لها:

ـ اتركيني وحدي.

شيء من خيبة احتل نظرتها، دمدمت:

ـ كما تريد.

انسحبت محبَطة وبقيت بضيقي.

ظهر اليوم قلت لتوفيق:

ـ أنا لا أوافقك الرأي على نقل عثمان لأي إدارة.

لم يستسغ جملتي. سألني بنبرة باردة:

ـ لماذا؟

ـ عثمان يعمل في تخصصه، وهو على دراية واسعة بأوضاع المؤسسة الإدارية.

كنت أتكلم وكان يستمع إليَّ بتأفف وانزعاج واضحين، فأكملت:

ـ أظنه سيرفض الانتقال.

ـ سأصدر قراري ولن يكون أمامه إلا الموافقة أو الاستقالة.

ظل ينظر إليَّ بوجه خالٍ من أي تعبير.

زوج أخته فرضه على المؤسسة بقوة منصبه الحكومي. طوال عمره كان بعيدًا عن عالم المال والتجارة والاقتصاد. حين كنا نلتقي في الديوانية كان يردد:

ـ التاريخ يقدم المواعظ، والتجارة تقدم وجع الرأس.

في لقائنا ظهر اليوم، قلت له:

ـ قرارك ليس في مصلحة المؤسسة.

اسودَّ وجهه واحتد صوته:

ـ أنا أعرف منك بمصلحة المؤسسة.

تلاقت أعيننا، فقلت له بهدوء:

ـ لا يصحّ اللعب في المناصب. أسهم المؤسسة في هبوط.

ـ لو سمحت.

قاطعني صارخًا وقد اشتعلت عيناه بغضب مسعور. نهضتُ واقفًا، نبهته بنبرة محذرة:

ـ صوتك عال!

تركته في جلسته، أنهيت لقاءنا دون أن أستأذن منه.

أشعر بأن حجرًا يضغط صدري

ـ إلى متى ستبقى على هذه الحال؟!

قلقًا وصلني صوت ياسمين وقد نفد صبرها:

ـ أرجوك تكلم، ما الذي يشغل بالك؟

ـ أشياء كثيرة.

قلت لها، فاقتربت لتجلس بجانبي:

ـ هل أستطيع مساعدتك؟

أعرف طبع زوجتي وحرصها المرضي عليَّ. شاغلها قلقها، ولن تستطيع النوم:

ـ سأترك عملي.

لطمتها جملتي المفاجئة، نظرت إليَّ مستغربة فاستدركت أقول:

ـ تعبت.. أودّ لو أسافر بعيدًا.

الكويت ٧/ ٣/ ٢٠٠٦

رمي الكلام

«تعبت». همس في سره، ضاغطًا على قبضة عصاه الناعمة، التي أهدتها إليه سهّار في إحدى سفراتها. يومها نبّهته بقولها:

ـ هذه عصا قوية، جدتي أنقعتها بماء سحرها المبارك.

وحدهما، هو ووفاء وهسيس الصمت. حدّث نفسه: البارحة حاولت شرح مخاوفي لها، لكنها نظرت إليَّ باستخفاف، رفعت نظارة القراءة عن عينيها، قذفت بوجهي:

ـ أنتَ خرّفت.

أهـانتني وتركتنـي لهواجسـي. آلمنـي موقفهـا، جرحتنـي كلمتهـا، ظلت ترنّ في خاطري. وددت لو ألحق بها، أصرخ في وجهها:

ـ أنا لست خرِفًا.

صار يجب أن أتخذ قراري.

اختَلَسَ نظرة نحو زوجته، بجلستها المعتادة، وتقطيبتها الصارمة،

تقرأ القرآن. حرّك عصاه، راسمًا أشكالًا متداخلة على السجادة السميكة قرب قدميه.

مضت نصف ساعة على مجيئها إليَّ.

أصوات أبنائهما وأحفادهما تأتي من الخارج.

لماذا صرتُ أنفر منها؟ أشعر بها تكرهني لا تطيق رؤيتي. ما عدت أفهم ما يحصل لي: لماذا كرهتها مؤخرًا؟

يوم رأيتها أول مرة، تصوّرت أنني سألتصق بها كظلها، ولن أدعها تفلت من بين يدي. كأنه الأمس، يوم ذهبنا أنا وأختي لرؤيتها. أذكر كيف حذّرتني أختي والملل يشي بحسّها:

ـ هذه آخر مرة أجيء معك، بنات الناس لسن لعبة.

كانت قد تعبت وهي تفتش معي عن فتاة تروق لي. طمأنتها قائلًا:

ـ لن تكون هناك مرة أخرى.

سريعًا مرَّ كل شيء. لحظة لمحت عيناي وجه وفاء، خفق قلبي، فأسررت أختي دونما تفكير:

ـ هذه هي الفتاة التي أبحث عنها.

ـ لا تندفع، أعط نفسك فرصة.

كنت أريد نسيان سهّار، والهرب من طيفها، ورمي جميع ذكرياتي النازفة معها. قلت:

ـ نتفق مع أهلها، ولتكن زوجتي منذ اللحظة.

رُتِّبَ أمر زواجنا على عجل، وكنت أتحرق شوقًا إليها.

بودي لو تكفّ عن القراءة، تغادر الغرفة، وتتركني وحدي. أشعر بها تتجسس على أفكاري. أبناؤنا وعيالهم في الخارج.

لا أذكر كيف حصل، كأن شيئًا سقط عنها مساء عقدنا قراننا. لحظة أطبقت أصابعي على ورقة زواجنا، تلاشت لهفتي عليها، شيء من نفور تحرك في صدري. لكني خبّأت هاجسي، طردت وساوسي، وانطويت على سري وخوفي.

في الأيام الأخيرة صرت أخاف منها.

لابدَّ أن سهّار الملعونة قد نفّذت وعدها. سهّار صديقتي الأفريقية التي أمضيتُ سنوات الجامعة متأبطًا ذراعها وقلبها. أتذكر كلماتها في آخر لقاء لنا قبل سفرها، نفخت حر قلبها وحقدها، هزّت إصبعها الرفيعة في وجهي تتوعدني، والشرر يبرق في عينيها. رمت بوعيدها:

ـ سأجعل جدتي الساحرة تدمّر حياتك، وستندم.

ليلة البارحة، وككل ليلة، جلسنا أنا ووفاء. شيءٌ ما يندسّ بيننا لحظة نجتمع. روحٌ شريرة تحوم فوقنا، تنفث كرهًا وصمتًا باردًا، يلجم أفواهنا. يتلوى الوقت كأفعى. نجتر نظرات عيوننا الخائفة. تهجرني وأفكاري، تتناول القرآن الكريم، تدفن وجهها بين صفحاته وتغيب.

البارحة، أربكتني نظرتها اللائمة، عاتبتني والضيق في حسّها:

ـ ما الذي يشغل بالك؟ بماذا تفكر؟

كنتُ ممسكًا بعصاي، خجلتُ أن أصارحها بسحر جدة سهّار. سألتني:

ـ لماذا تتهرب من الجميع؟

وحدي أعلم أن لعنة سهّار وجدتها الساحرة الأفريقية تلاحقني، تفسد عليَّ حياتي.

أتمنى لو أساعد وفاء ونفسي.

لا سبيل أمامي. وحده الطلاق أفضل الحلول.

رفع رأسه لزوجته. ساهية بجلستها تقرأ القرآن. أصوات أبنائهما وعيالهم في الخارج.

يجب أن أضع حدًا لعذابي. ما عدت أقوى على المزيد. أعرف أن لعنة سهّار قد حلّت بي، وأنها لن تتركني إلا إذا انفصلت عن وفاء، وذهب كل منا لحال سبيله.

مستعينًا بعصاه نهض من مقعده، فرفعت عينيها إليه، أمسكت بنظارة القراءة. خاطبها:

ـ وفـــاء.

انتظرته يفصح عن طلبه. شدّ من قبضته على رأس عصاه، وكأنه يستمد قوةً لعبارته:

ـ أنتِ طالق.

رمى جملته بحسٍّ تعبٍ كمن يزيح حملًا عن كتفيه.

خمشت الدهشة وجه زوجته. وضعت القرآن على الطاولة أمامها، وتستند على ذراعيها نهضت واقفة. فتحت الباب بيد راجفة. صرخت بأبنائها، فجاء صوتها راعشًا:

ـ تعالوا اسمعوا أباكم الخرف.

الكويت ٩/ ٧/ ١٩٩٩

منذ قرابة الشهر وبيتنا ورشة عملٍ لا تهدأ. في البدء فاتحتني:

ـ صبغ الحوائط.

كنا حول مائدة العشاء. نظرتُ في عينيها أقرأ عزمها، قبل أن ألتفت إلى الحوائط:

ـ أنتِ تمزحين؟

ـ اليوم صباحًا اتفقت مع مقاول الصبغ.

قالت موضحة، واستدركت:

ـ فاوضته جيدًا، لن يكون السعر مرتفعًا.

ـ لكن الحوائط..

قبل أن أكمل جملتي تدخلت معترضة:

ـ هناك بعض الشروخ الصغيرة، كما أنني أرغب بتغيير اللون.

حضر الضيق بقلبي. لمتها: تخترع الإزعاج والصرف غير المبرر، وتتصرف بأمور البيت وكأني غير موجود. عاتبتها، وقد صدّت نفسي عن الأكل، نهضت ألوك ضيقي.

بعد صبغ الحوائط، فاجأتني يوم عدت من عملي لأرى صالة الضيوف خالية. بيّنت لي أنها نقلت الأثاث إلى محل التنجيد، وأن قماشًا جديدًا سيضفي روحًا جديدة على الجلسة. عللت بأنها لا تريد لبيتنا أن يبدو أقل من بيوت صديقاتها:

ـ أنا غير موافق.

صارحتها باعتراضي لكن.. بعد صبغ الجدران وتنجيد الأثاث، اشترت قطعة سجاد جديدة. أخبرتني والفرح بصوتها:

ـ اشتريتها من التنزيلات، حصلت على خصم كبير.

ولم يكد يمضي يومان حين لاحظت وجود ثريات إضاءة جديدة:

ـ الثريات القديمة غلفتها ووضعتها في المخزن.

دفعت مبررة، فاعترضت وغضبي:

ـ لمَ كل هذه الخسائر؟!

ـ لا خسائر، فلوسي في بيتي.

ما استسغتُ جملتها. أشعلت سيجارتي وابتعدت أسارر سيجارتي بخيبتي وضيقي.

في عصر اليوم نفسه، كنت أشاهد مباراة كرة القدم، حين رنَّ جرس البيت، فجاءت إليَّ تخفي وجهها بابتسامة أعرفها:

ـ وصل طقم طاولات صالة الجلوس.

بقيت أنظر إليها غير مصدق، فأضافت:

ـ طقم جميل، يأخذ العقل.

ـ وهل بقي عقل في هذا البيت؟!

أطلقت سؤالي وسط حيرتي بأفعالها. فاعترضت وقد تنكد وجهها:

ـ أتمنى لو يعجبك شيء مما أفعل.

الخياطة تفرد إحدى الستائر على أرض الصالة، وتبدأ بزمّ أطرافها.

في بداية الأسبوع الماضي جاء عمال شركة الزراعة بنباتات داخلية جديدة:

ـ النباتات القديمة ذبلت، لم تعد أوراقها زاهية.

خاطبتني وسط ذهولي، فقلت لها:

ـ الذبول سيطال كل شيء هنا.

سأولع سيجارة جديدة.. أشعر أن حصة تخبئ شيئًا ما. الخياطة تُنهي زمّ الستارة.

قبل ثلاث ليال أخبرتني حصة:

ـ وحدها الستائر باقية.

سكتُّ لثوان قبل أن أسألها:

ـ لمن كل هذا: صبغ، وتنجيد، وأثاث، ونباتات داخلية، وستائر؟! لماذا الصرف الزائد والخسائر؟!

ـ تغيير وتجميل.

ردّت بهدوئها، وأكملت:

ـ أنا أدفع من فلوسي.

قرصتني جملتها. فغشي الضيق حسّي:

ـ الله يلعن الفلوس التافهة.

أدركت هي قسوة جملتها، فتراجعت قائلة:

ـ كعادتك، تحبطني دائمًا، كأن هذا ليس بيتك.

ـ انتهى.

صوت الخياطة تخاطب حصة، بعد أن علّقت الستارة.

حصة تطلب مني ترك التدخين، مؤكد أنني سأجنّ بدون سيجارة:

ـ ما رأيك؟

أطلَّ الفرح بحسِّ حصة، قالت:

ـ الآن يمكنني أن أجري العملية الجراحية وأنا مطمئنة. أصبح البيت جاهزًا. صديقاتي لن يجدن شيئًا ينتقدنه وقت يأتين لزيارتي.

ـ عملية؟!

سألتها مستفسرًا:

ـ كان لابدَّ من تجهيز البيت أولًا.

ـ عملية ماذا؟!

ـ سأجري عملية إزالة كيس الشعر من تحت إبطي.

ودون أن أفكر طفر بي السؤال:

ـ هل ستكون العملية بمخدر عام؟!

الكويت أكتوبر ١٩٩٩

الكلــب

أكره الكلاب.

قبل قليل شاهدت في الأخبار كلابًا بوليسية تهاجم مجموعة متظاهرين.

كلما رأيت كلبًا تذكرت صويلح ابن المختار، وجاءت إليَّ هيئة خلّود بدمائه.

كنا أطفالًا نلعب كرة القدم في «البراحة» بين البيوت. حفاة بدشاديشنا البيضاء التي لطختها بقع السواد في أكثر من مكان. تركض بنا لحظات اللهو، ونركض بجنون متعتنا وراء الكرة، يسبقنا صراخنا العالي.

يوم طارت كرتنا لتحطّ على سطح بيت المختار. ارتفعت نظرات عيون الأطفال متعلقة بوجهي، ربما لأنني الأطول، وربما لأنني الذي قذف الكرة، وربما لأنهم يعرفون حبي ومهارتي في تسلق الجدران والأشجار، مثلما يعرفون علاقة والدي الطيبة بالمختار. خاطبتني عيونهم قبل رجائهم:

ـ اقفز إلى السطح وأحضر الكرة.

كنت أجد متعة في تسلق الجدران، مظهرًا شجاعتي ومهارتي. ولأن أصوات الأطفال راحت ترتفع من حولي:

ـ يالله.. يالله.

لم أتأخر، تسلقت الجدار، مستخدمًا أصابع يديّ ورجليّ، متمسكًا بنتوءات الطابوق. حين وصلت سور السطح نظرت للأطفال في الأسفل والزهو يرسم ابتسامة وجهي. رأيت كرتنا العزيزة، ساكنة وسط فراغ وصمت السطح. وكأسرع ما يكون، قفزت إلى السطح، منطلقًا نحوها. قذفتُ بها إلى البراحة، وعدت أنحدر على جدار بيت المختار نزولًا. لكن لحظة وطأت رجلي الأرض، أبصرت صويلح ابن المختار، وكأنه نبت فجأة من الهواء. تلاقت نظراتنا، فأسرعت إليَّ خفقة قلب غريبة. كانت نظرة عينيه تنطق بالوعيد، وكانت حركة فمه التي أكره.

استأنف الأطفال لعبهم وركضهم وصراخهم وراء الكرة، لكنني شعرت وكأني أسمع تكسر شيءٍ في صدري.

في ذلك المساء، وبعد صلاة المغرب في المسجد، وكعادتهما خرجا أبي وصديقه المختار يتهامسان، وكانت تلك الخفقة لا تزال تهزّ قلبي. حدّثت نفسي: هل أخبر صويلح أباه؟ وهل سيشتكيني المختار لأبي؟ بقيت أسير خلف أبي بخاطر وَجِلٍ، فأنا أعرف عصبيته وأعرف قسوة كفه التي لا ترحم. لحظة وصلنا إلى باب بيتنا التفت إليَّ يحثّني على الدخول:

ـ ادخل.

وخاطب المختار:

ـ سنصلي العشاء جماعة.

قرأت هدوءًا على حسّ أبي، لكن الخوف ظل يغمر قلبي. مررت من أمامه داخلًا البيت، وقد غاصت رقبتي في ضلوعي متوقعًا أي صفعة، لكنه أغلق الباب، ونطق جملته التقليدية:

ـ لتجهز أمك عشائي.

انقضت تلك الليلة بسلام، إلا أن نظرة صويلح المتوعدة وحركة فمه الكريهة ظلتا تلوحان لي. فبالرغم من أن أباه صديق أبي فإنني لا أحبه، ولا أطفال الحي يرحبون بلعبه معنا. فهو كثير الصراخ والعراك، ويريد أخذ كل شيء لنفسه في كل لعبة، كما وسبق له أن سرق لعبة عبّودي اليتيم.

* * *

بعد أسبوع، وبينما كنا نلعب في البراحة، سقطت الكرة مرة ثانية على سطح بيت المختار، تنحيتُ جانبًا متجاهلًا صراخ الأطفال:

ـ اصعد.. اصعد.

كانوا يدفعون بي نحو الحائط، وكنت أنسحب منهم، وفجأة تبرع خلّود صارخًا:

ـ أنا أحضر الكرة.

وددت لو أستوقفه، لكني أحجمت. رحت أنظر إليه، يتسلق

بصعوبة الحائط، قبل أن يقفز إلى السطح، فينطلق نباح كلب مسعور.

انتشر صفار كالكركم على وجوهنا في البراحة، ونحن نسمع صرخات خلّود. جمّد الخوف خطواتنا، طالت لحظات انتظارنا بترقبنا، قبل أن يعود خلود ماشيًا يجر خطواته ببكائه ودموعه، والدم يسيل من فخذه ملطخًا بياض دِشْدَاشَتِه. وإلى جانبه يسير صويلح ابن المختار، حاملًا كرتنا العزيزة بين يديه، متلمظًا بنظرته الشامتة وحركة فمه الكريهة.

أحضر المختار كلبًا بوليسيًّا ليراقبنا، يطلُّ برأسه علينا من فوق سور السطح. من يومها تغيّر شيء ما في حينا. وجود الكلب ربط أرجلنا. ما عدنا ننطلق في لعبنا كما كنا، ولا عادت ضحكاتنا ترتفع بأصواتنا. وحده صويلح المنبوذ، بنظرة عينيه الكريهة، صار يمسك بحبل الكلب الأسود، يستمتع بمروره من أمامنا مستقويا به، وشامتًا بانكماشنا على خوفنا وصمتنا.

بالرغم من أنها حيوانات طيبة، إلا أنني أكره الكلاب، كل الكلاب.

الكويت ٣/ ٣/ ٢٠٠٨

صدر للكاتب

*** مجموعات قصصية:**

١ ـ أبو عجاج طال عمرك، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.

٢ ـ أغمض روحي عليك، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٥.

٣ ـ مرآة الغبش، دار المدى، دمشق، ١٩٩٧.

٤ ـ حكايا رملية، دار المدى، دمشق، ١٩٩٩.

٥ ـ شمس، سلسلة آفاق عربية، القاهرة، ٢٠٠٥.

*** روايات:**

١ ـ ظل الشمس، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٨.

٢ ـ رائحة البحر، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٢.

٣ ـ سمر كلمات، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٦.

٤ ـ الثوب، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٩.

*** دراسات:**

١ ـ البصير والتنوير، دار قرطاس، الكويت، ٢٠٠٠.

٢ ـ إسماعيل فهد إسماعيل، كتابة الحياة، وحياة الكتابة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٩.

*** مسرح:**

١ ـ عرس النار، دار المدى، دمشق، ٢٠٠١.



سرقات صغيرة

يخوض الروائي والقاص الكويتي طالب الرفاعي، عبر هذه المجموعة، في قضايا اجتماعية شائكة ومثيرة تمسّ حياة وبنية المجتمع الكويتي والخليجي. وهو إذ يتناول هذه القضايا بعين فاحصة وناقدة، ليجعل من تداخل الواقعي بالخيالي لعبة فنية غاية في الإتقان والمراوغة.

طالب الرفاعي، الذي بدأ كتابة القصة القصيرة في منتصف السبعينيات، ومن ثَمَّ اتجه لكتابة الرواية، وعُرف بانحيازه الواضح لقضايا الإنسان، يقدم في «سرقات صغيرة» صورًا اجتماعية خليجية دالة ولافتة تبقى في الذهن، راسمة الدهشة والابتسام على وجه القارئ، لكنه ابتسام مصحوب بمرارة لاذعة.



دار الشروق
www.shorouk.com